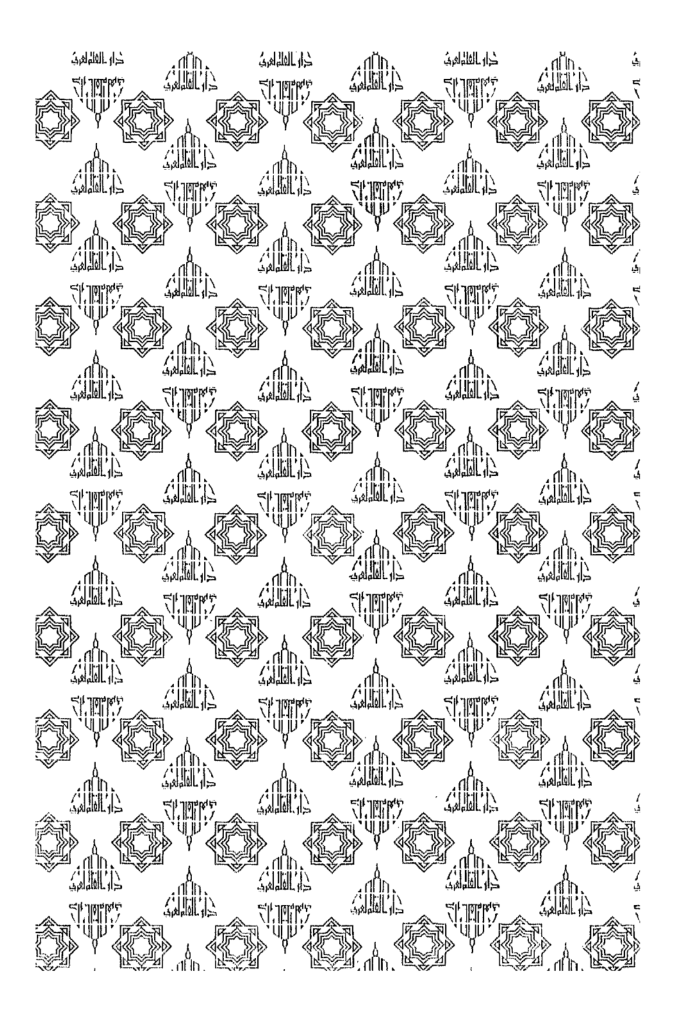
معارك عربية إسلامية خالدة

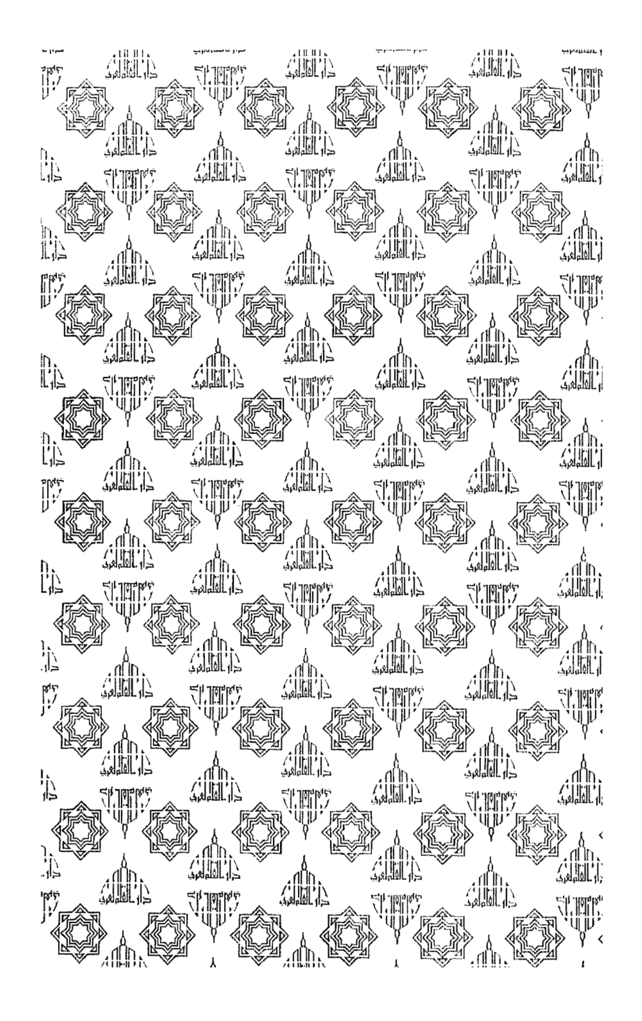
١٩ - معركة عكا

٢٠ - معركة عين جالوت



دار القلم العربي


دار القلم العربي


دار القلم العربي

مَعارك عَربيّة خَالدة

١٩

معركة عكا

إعداد

عبدالقادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب :78 هاتف : 2213129 فاكس : 2212361 21 963+

البريد الالكتروني : E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركةُ عكا [1]

(تمهيد)

أقبل فصل الشتاءُ يحملُ معه البردَ والثلجَ والليالِيَ الطويلةَ المملّة ، وحصارُ الفرنجِ مضروبٌ حول مدينةِ عكا ، حتى نفِدَتْ مؤنُ القومِ ، وهم يستقبلون شتاءً قاسياً ، وبرداً شديداً وسأماً طويلاً .

واتصلَتِ الحربُ طويلةً قاسيةً مضنيةً ، يقتتلُ المسلمون والفرنجُ أشدَّ القتالِ إذا أضاءَتِ الشمسُ ، ويكفُّون عنِ القتالِ إذا أقبل الليل وادْلَهمَّ الظلامُ حتى أخذ السأمُ يسري إلى نفوسِ الفريقين المقتتلين ، حتى إن بعضَ جندِ صلاحِ الدينِ سألوه أن يريحَهم مما هم فيه من حصارٍ محكمٍ طويلٍ ، ومن قتالٍ مضنٍ

---

(١) : عكا : بلد على ساحل بحر الشام ، وهي من أرض فلسطين ترزح اليوم تحت الاحتلال اليهودي .

ومستمرٍ ، وأنْ يبدل بهم جيشاً أخرَ ، وكـانوا عشـرين ألفـاً ، فرقَّ لهم ، واستجاب لمطلبِهم وعـزم علـى اسـتبدالِهِم ، وكـان قصدُهُ خيراً وأملُهُ با للهِ والنصرِ كبيراً .

والـذي ثنـى عزمَـهُ عـن قصـدِهِ ومنَعَـهُ مـن تنفيـذِهِ أنـه صدَفَ أن جاءَتْ مراكبُ من مصرَ تحملُ مؤناً وفيرةً ، ومـيـرة كثيرةً تكفيهم كجيشٍ وسكانٍ سنةً كاملةً ،

فلما توسَّطَتِ البحرَ ، واقترَبَتْ من الميناءِ قدَّرَ الله عـز وجـل ، ولا رادَّ لأمـرِهِ أن هـاجَتْ عليهـا ريـحٌ شـديدةٌ عاتيَـةٌ فاضطربتِ المراكبُ ، وتصادَمَتْ ، فتكسَّرَتْ وغرِقَـتْ وغـرق ما فيها من ميرةٍ وجنودٍ وبحارةٍ ، فحزن المسلمون لذلـك حزنـاً شديداً ، واغتمّوا منـه غمـاً كبـيراً ، واشـتدَّ الأمـرُ بهـم ضيقـاً وحرجاً .

والذي زاد الأمرَ تعقيداً والطينَ بلةً ، وأضاف همـاً إلى همٍ أن حدث وسقطَتْ ثُلمةٌ عظيمـةٌ مـن سـورِ عكـا ، فـاغتنم الفرنـجُ هـذه الفرصـةَ وحـاولوا أن يجـدوا منهـا ثغـرةً ليدخلـوا المدينةَ ، فتصدّى لهمُ المسلمون ، وسَدّوها بصدورِهِم ، وقاتلوا دونها بنحورِهِم ، وقـاوموا مقاومـةً عظيمـةً ، وأبـدَوا شـجاعةً

فائقةً ، وصبروا صبراً جميلاً حتى منعوا الفرنـجَ مـنِ اختراقِهـا ، فكان منهم مَنْ يقاتلُ بيمينهِ ومنهم مَنْ يجاهدُ بعملِهِ وكدّه حتى أعادوا بناء الثُلمةِ ، فعادَتْ أقوى مما كانَتْ عليه من قبلُ وأشدَّ وأمنعَ وردَّ ا الله الذين كفروا بغيظِهـم لم ينـالوا خـيراً ، والحمـد للهِ ربِ العالمين .

حصارُ عكا

استمرَّ الحصارُ على عكا قوياً محكماً ، وجمـوعُ الفرنـجِ تتدفقُ عليها بـأعدادٍ كبـيرةٍ وكميـاتٍ هائلـةٍ مـن البـرِ والبحـرِ وحَشَرَتْ أوربـا قواتِهـا ، وشَحذت أنيابَهـا ، وجـاءَتْ بحدِهـا وحديدِها يدفعُها الغرورُ والغطرسةُ لقتالِ المسلمين لأخـذِ عكـا واستعادةِ بيتِ المقدسِ ، واجتمعَتْ ملوكُهـا تحـت قيـادةِ ملـكِ إنكلترا ، وأحاطوا بمدينـةِ عكـا كمـا يحيـطُ السـوارُ بـالمعصمِ ، فعظُم الخطب علـى المسـلمين وتفـاقم الأمـر ، واشـتدَّ البـلاءُ ، وأتاهُمُ العدو مـن حيـثُ لم يحتسـبوا ، وأخـذ منهـمُ الظـنُّ كـلَّ مـأخذٍ ، وكـأنهم أصيبـوا بالإحبـاطِ ، وسـرى إلى نفوسِـهِمُ الضعفُ والوهنُ ، وأصبحـوا بحالـةٍ سيئةٍ مـن اليـأسِ والقنـوطِ خاصةً بعد تحطمِ مراكـبِ المؤنِ القادمـةِ مـن مصـرَ ، وسـقوطِ ثلمةٍ عظيمةٍ من السورِ ، وانتشارِ وباءٍ شديدٍ أصاب المسـلمين والكافرين معاً ولم يفرقْ بـين أحـدٍ مـن الفريقـين ، فكـان جميـعُ ذلك نذيرَ شؤمٍ لهم .

في هذه الظروفِ القاسيةِ واللحظاتِ الحرجةِ ، والحالـةِ

النفسيةِ الصعبةِ التي يعيشُها المسلمون ، وتمرُّ بهم صعبةً شديدةً وأليمةً كان السلطانُ صلاحُ الدينِ رحمه الله تعالى يدافعُ حزناً عميقاً ، وألماً ممضّاً ، ويأساً شديداً يريدُ أن يظهرَ على وجههِ ، وينطلقَ على لسانِهِ ، ولكنه كان يقاومُ ذلك بكل مرارةٍ ، ويخفيه في نفسِهِ ، ويكتمُهُ في قلبِهِ ويتكلّف من التجلّدِ والتصبُّرِ ما أتعَبَهُ ، وأثقَلَ كاهلَهُ ، وأسلَمَهُ للمرضِ ، وأقْعدَهُ عنِ القتالِ ، وهو ينظرُ في وجوهِ جنودِهِ فلا يرى فيها إلاّ اليأسَ والقنوطَ والرغبةَ في الاستسلامِ والكفِّ عنِ القتالِ .

لقد أقلَقَهُ هذا المشهدُ وأزعَجَهُ ، وأقضّ مضجَعَهُ ، وجَعلَهُ في حالةٍ من الألمِ والحزنِ لا تفارقُهُ ما ابيضَّ النهارُ ، ولا تغادرُهُ ما اسوَدَّ الليلُ .

وأخذ هذا الحزنُ يشتدُّ ، وأخذ هذا الألمُ يقسو ، ومضى هذان العدوّان يَعظمان ويطغيان حتى نزعا عنه كلَّ راحةٍ وسلبا من عينيهِ طعمَ النومِ ، وجعلاه في دوامةٍ مروّعة مزعجةٍ تحببُ إليه الموتَ ، وتُسئِمُهُ من الحياةِ ولسان حالِهِ يقولُ :

اقتلوني ومالكاً ... واقتلوا مالكاً معي

ولكنَّ الله مع الذين اتقوا وكانوا مؤمنين ، لذلك فقد ترك صلاحُ الدين رحمه الله تعالى الأمرَ للمقاديرِ ، وفوَّضَ النتائجَ للمشيئةِ الإلهيةِ تتصرّف كما تشاءُ وتحكمُ كما تريدُ .

ففي هذه الظروفِ مات ابنُ ملكِ الألمانِ الذي تسلَّمَ الأمورَ بعد موتِ أبيه [1] ومعه عَددٌ كبيرٌ من قادةِ جندِهِ ومستشاريه ، فحزن عليه جنودُه الألمانُ حزناً شديداً ، وأوقدوا ناراً عظيمةً في كلِ خيمةٍ تعبيراً عن حزنِهم على موتِهِ فصار يموتُ كلَّ يومٍ من الفرنج المائةُ والمائتان من أثرِ الوباءِ المنتشرِ بين صفوفِهم وصفوفِ المسلمين ، فكان بعضُهم يلجأُ إلى صلاحِ الدينِ لشدةِ ما أصابهم من جوعٍ وضيقٍ وخوفٍ ، فكان معظمُهم يسلمون لما يرون من رحمةٍ واسعةٍ وأخلاقٍ كريمةٍ ، ومعاملةٍ إنسانيةٍ حسنةٍ .

---

(١) : انظر تفاصيل ذلك في الرسالة السابقةِ من هذه المجموعة التي تحمل اسم (معركة فتح بيت المقدس) .

الانتقام

اشتدَّ حصارُ الفرنجِ لمدينـةِ عكـا واجتمعـوا عليهـا مـن كلِ فجٍ عميقٍ ، وأحكموا قبضَتَهم حولها وهـم مصرّون على احتلالِها ، وقدِمَ ملكُ الإنكليز [1] في جمٍ غفيرٍ ، وجمعٍ كثـيرٍ ، ومعه خمسٌ وعشرون قطعـةً بحريـةً مشحونةً بالعتـادِ والسـلاحِ والمقاتلين وقد تزعَّمَ هذه الحملةَ ملـكُ إنكلـترا ، وتولّى قيـادةَ الجيوش الأوربيـةِ كلهـا ، وكـان رجـلاً مـاكراً يجيـدُ الأمـورَ السياسيةَ كما يجيدُ القيادةَ العسكريةَ ، وكان فـورَ وصولِـهِ إلى عكا ضرب حولَها حصاراً محكماً . وأحاط بها من كلِ جهـةٍ ، ونَصَبَ حـولَ أسوارِها سبعةَ مجانيقَ تضـربُ في البلـدِ ضربـاً متتابعاً بلا توقفٍ ، وتقذفُ بالحجـارةِ الضخمـةِ وكتـلِ الحديـدِ المحماةِ بالنارِ ليلاً ونهاراً ، وقد تركز القذفُ على بـرجٍ يُسـمَّى عينَ البقرِ ، ومازال القذفُ مستمراً ومتتابعاً بـلا انقطاعٍ علـى هذا البرجِ حتى أثَّرَ فيه تأثيراً واضحاً ، وأحدَثَ فيه ثُلمةً كبيرةً

---

(١) يقال : هو ريشارد قلب الأسد .

جعلتْهم يشعرون بالتفوقِ على المسلمين ، وميْلِ كفةِ القتالِ لصالِحِهم .

في هذه الظروفِ والمعركةُ قائمةٌ على أشدِّها أقبلَتْ مركبةٌ عظيمةٌ للمسلمين قادمةً من ميناءِ بيروتَ مشحونةً بالمؤمنِ والأسلحةِ والأمتعةِ ، فاعترضَها ملكُ انكلترا ، وكان قدِ احتلَّ البحرَ في أربعين مركباً عليها رجالٌ أشداءُ وكأنهم قراصنةُ البحارِ لا يتركون مركباً يمرُّ أمامهم إلا تعرّفوا عليه ومنعوه من الوصولِ إلى عكا ، وكان الفرنجُ في ذلك الوقتِ يُسمَّون ملوكَ البحارِ لكثرةِ مراكِبِهم وقوتِها ، وشدةِ تمرسِهِم في قتالِ البحارِ فاعترضوا مركبةَ المسلمين فأخذوها ، وكان عليها ستمِائةٍ من المقاتلين الصناديدِ الأبطالِ ، فتصدَّوا للفرنجِ ملوكِ البحارِ مع كثرتِهَمِ وقاتلوهم قتالاً شديداً دفاعاً عن مركبتِهم ، فلما شعروا بالغلبةِ ، والكثرةُ كما يقالُ تغلبُ الشجاعةَ ، وأيقنوا أنهم هالكون لا محالةَ ، فإنه إما القتلُ وإما الغرقُ في البحرِ فجعلوا يخرقون السفينةَ من جميعِ جوانبِها لتغرق فلا يستفيدُ العدوُ منها ولا من أحمالِها بشيءٍ ، وغرقَتِ السفينةُ بما فيها من رجالٍ ومؤنٍ وعتادٍ ، ومات مَنْ عليها من

المقاتلين السِتمِائةِ وهلكوا عن أخرِهِم رحمَهُمُ ا لله وغفر لهم .

لقد أصابوا حين خرقوا السفينةَ ، لأنهم أيقنوا بالهلاكِ، فلِمَ يموتون ويتركون سفينتَهم بما فيها من أحمال ومتاعٍ ليأخذها العدو ، ويقوى بها على المسلمين . . . ؟ وكأن بعضَهم أشار عليهم بذلك معتمداً على قولِ الحقِ تبارك وتعالى : ﴿ فأما السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملون في البحرِ فأردتُ أن أعيبَها وكان وراءَهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً ﴾ (١) .

ولقد حزن صلاحُ الدينِ رحمه ا لله تعالى والمسلمون على هذا المُصاب حزناً شديداً ، وأسلموا أمرهم لله تبارك وتعالى ، وفوضوا مصيرَهم للمقاديرِ تحكمُ كما تشاءُ ، وتتصرفُ كما تريدُ .

وكأن مشهدَ الحصارِ قد تكرر وحدث مرةً أخرى ، وكأنَّ التاريخَ يعيدُ نفسَهُ ولكن بصورةٍ مختلفةٍ .

بالأمسِ القريبِ اجتمعَتْ قوى البغي والشرِ والعدوانِ وأقبلتْ قريشٌ واليهودُ وبعضُ قبائلِ العربِ ، وتحزّبوا لغزوِ

---

(١) : الآية ٧٩ من سورة الكهف .

المدينةِ والقضاءِ على دعوةِ الإسلامِ ، وإسقاطِ الدولةِ الإسلاميةِ الحديثةِ وهي في سني عمرِها الأولى قال ا الله تعالى وهو يصفُ مشهدَ حصارِ الأحزابِ للمدينةِ المنورةِ :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمةَ ا الله عليكم إذ جاءتكم جنودٌ فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان ا الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من فوقِكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغتِ الأبصارُ وبلغتِ القلوبُ الحناجرَ وتظنون با لله الظنونا . هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلزِلوا زلزالاً شديداً ﴾ [1] صدق ا الله العظيم .

ولقد تكرر هذا المشهدُ التاريخيُّ مرةً أخرى وعاد بقالبٍ آخر ، وبصورةٍ مختلفةٍ ، وتكالبَتْ قوى البغي والعدوانِ والضلالِ تحت اسمِ الصليبِ لاحتلالِ مدينةِ عكا والقضاءِ على المسلمين تماماً كما حدث بالأمسِ . .. ! ! ، ولكن ، ﴿ إنّ ا الله يدافعُ عن الذين آمنوا إنَّ ا الله لا يحبُ كلَّ خوانٍ كفورٍ ﴾ [2] .

---

(١) الآيات ٩ - ١١ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الحج .

فلقد عزّى الله المسلمين ، وجبر مصابَهم ، وأنساهم البلاءَ الذي نزل بهم بأن قام جماعةٌ فدائيون من المسلمين فردّوا على الفرنجِ بضربةٍ مماثلةٍ ، وانقضوا على مركبةٍ ضخمةٍ جداً مؤلفةٍ من أربع طبقاتٍ : الأولى من خشبٍ والثانيةُ من رصاصٍ ، والثالثةُ من حديدٍ ، والرابعةُ من نحاسٍ ، وكانت هذه المركبةُ مشرفةً على أحدِ أسوار عكا ، وفيها عددٌ كبيرٌ من مقاتلي الفرنجِ ، ولقد أرهبتْ هذه المركبةُ المسلمين ، وأوهنَتْ من عزائِمِهِم ، وأقلقتِ الجنودَ والسكانَ لدرجةِ أنهم أقدموا على أن يطلبوا الصلحَ والأمانَ ويستسلموا للفرنجِ ، ويتركوا لهمْ المدينةَ .

ولقد فرّجَ الله عنهم ، وعزّاهم في مُصابهم ، وأمكن جماعةً من الفدائيين من إحراقِها . ولقد حدث ذلك بنفسِ اليومِ الذي غرِقَتْ فيه مركبةُ المسلمين والحمد لله رب العالمين، فهذه بتلك ، وواحدةٌ بواحدةٍ ، والحربُ سجالٌ .

مرضُ ملكِ إنكلترا

بعد المعركةِ المذكورةِ وبعد إحراقِ مركبةِ الفرنج عاد الأملُ إلى المسلمين ، وقويَتْ عزيمتُهم ، وانشرحَتْ للقتالِ نفوسُهم بعد أن كادوا يستسلمون ويخلون المدينةَ للفرنجِ .

أما الفرنجُ بعد هذه الحادثةِ فلم يزدادوا إلا شدةً وغلظةً ، وبغياً وعتواً ، وشراسةً وعدواناً ، وإصراراً على مواصلةِ القتالِ لاحتلالِ عكا ، رغم المرضِ الشديد الذي نزل بملكِ انكلترا ، ورغم الجرحِ البليغِ الذي أصاب فيليب ملكَ فرنسا ، ورغم تخلّي المركيزِ صاحبِ صورٍ ، وانسحابِهِ بجيشِهِ خوفاً منهم أن يأخذوا مدينةَ صورٍ من يدِهِ .

رغم كلِ هذه الأمورِ مجتمعةً ظلَّ الفرنجُ مُصِرّين على القتالِ والاحتلالِ . وحين كان ملِكُ انكلترا يقاومُ مرضَهُ الشديدَ بعث إلى السلطانِ صلاحِ الدينِ يذكرُ له أن عنده جوارحَ قد جاء بها من البحرِ ، وهو على نيةِ إرسالِها إليه ، ولكنها قد ضعُفَتْ ، وهو يطلبُ لها دجاجاً وطيراً طعاماً لها لتقوىَ به ، وعند ذلك يرسلُها إليه وقدِ استرَدَّتْ عافيتَها .

فعرف صلاحُ الدينِ أنـه مريـضٌ وأنـه يطلبُهـا لنفسِـهِ ، فاستجاب له ، وأرسل إليه الكثيرَ من الطيرِ والدجاجِ كرماً منه وإحساناً لمن أساء إليه . ثم أرسل يطلـبُ منـه فاكهـةً وثلجـاً ، فأرسل إليه أيضاً .

وتفيـدُ بعـضُ الروايـاتِ أن صـلاحَ الديـنِ ذهـبَ إليـه شخصياً ، وزارَهُ وهـو مريـضٌ ، وعالَجَـهُ بيـدِهِ ، ودعـا لـه بالشفاءِ ، فما أعظمَ هـذه النفسَ . . . ! ومـا أكرَمَهـا . . . ! ومـا أنبلَهـا . . . ! إنـه لا يفعـلُ ذلـك إلاّ الأنبيـاءُ ، وهذه الصفاتُ الحميـدةُ والأخـلاقُ العظيمـةُ ، والمزايـا النبيلـةُ من صفاتِ الأنبياء والمرسلين ، ومن خُلُقِ المؤمنـين الصـادقين ، وصـلاحُ الديـنِ رحمـه الله تعـالى مـن أتبـاعِ سـيدِ المرسـلين محمـدٍ ﷺ الـذي كـان مـن صفاتِـهِ أنـه يعطـي مَـنْ حَرَمَـهُ ، ويصلُ مَنْ قَطَعَهُ ، ويعفو عَمّنْ ظلمَهُ ، ويحسنُ لمن أسـاءَ إليـه ، وهكـذا كـان صـلاحُ الديـنِ ، هكـذا كـان خلُقُـهُ مـع أعدائِـهِ وأصدقائِـهِ ، وهكـذا كـان تصرفُـهُ معهـم ، وهكـذا كـان سـلوكُهُ معهـم ، لقـد تمثّـلَ قـولَ اللهِ تبـارك وتعـالى ، ﴿ ادعُ إلى سـبيلِ ربِـكَ بالحكمـةِ والموعظـةِ الحسـنةِ وجـادِلْهم

بالتي هي أحسنُ ﴾ [1] . وقولَهُ تعالى : ﴿ ولو كنتَ فظاً غليظ القلبِ لا نفضّوا من حولِكَ فاعفُ عنهم واستغفِرْ لهم ﴾ [2] ، صدق الله العظيم . لقدِ التزم هذا التوجيهَ العظيمَ ، والخُلُقَ الكريمَ ، وطَبَّقَهُ عملياً ، ولبِسَهُ ظاهراً وباطناً فنال به شرفَ النبيين والصّدِيقين وفاز بثقةِ الناسِ أجمعين ، وحظي باحترامِ عدوهِ قبل صديقِهِ .

لقد أحسَنَ لمن أساءَ إليه ، وذهب شخصياً لمعالجةِ عدوِهِ ، ونظر إليه نظرةً إنسانيةً ولم يتعاملْ معه معاملةَ العدوِ لعدوِهِ ، ولكنَّ عدوَّهُ هذا كان عدواً حقيقياً ، فقد كان لئيماً ، ناكراً للجميلِ ، جاحداً للمعروفِ ، سيِّئَ الخُلُقِ ، عديمَ الأصلِ ، لقد قابل الإحسانَ بالإساءةِ ، والمعروفَ بالجحودِ ، والجميلَ بالنكرانِ ، فإنه لم يكَدْ يُعافَى من مرضِهِ حتى انقلبَ وحشاً كاسراً ، وعاد إلى شرٍ ممّا كان عليه ، وضاعف هجماتِهِ فكانتِ أشرسَ مما كانت عليه من قبلُ ، وغدَتْ متتابعةً لا

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

تتوقـفُ في ليـلٍ ولا نهـارٍ ، فـازداد الأمـرُ ضيقـاً علـى سـكانِ المدينةِ ، وسئموا الإقامةَ فيها لشدةِ ما رأوا من ضغـطٍ وهجومٍ وعـدوان لا ينقطـعُ ولا يتوقـفُ ، فأرسلوا إلى صـلاحِ الديـنِ يقولـون لـه : إمّـا أن تتصرفـوا وتوقفـوا العـدوَّ عـن شراستِهِ ، وتعملوا معنا شيئاً غـداً ، وإلا أعلَنّـا الاستسـلامَ ، وطلبنـا مـن الفرنـجِ الصلـحَ والأمـان ، فشـقّ ذلـك عليـه ، وأحزَنـهُ حزنـاً شديداً وآلمهُ أنّ الناسَ قد أحبطوا ويئسوا من النصرِ .

فباشر إلى وضعِ خطةٍ للهجومِ علـى العـدوِ ، ومباغتتِـهِ قبل أن يقومَ هو بهجومِهِ فلمـا قـام بتنفيـذِ مـا أقـدمَ عليـه رأى الفرنجَ قد سبقوه ، وكـانوا أكثرَ حـذراً ، وأشـدَّ تيقظـاً منـه ، رآهم وقد ركبوا من وراءِ خندقِهم ، والمشاةُ منهم قـد ضربـوا سوراً وشكلوا حاجزاً قوياً حول فرسانِهم ، حتى غدَوا وكأنهم قطعةٌ من حديدٍ صماءَ لا ينفُـذُ منهـا شـيءٌ فـأحجم عمّـا أقـدَمَ عليه ، وتراجع عن تنفيذِ مخططِـهِ ، خوفـاً مـن نكـول جيشـه ، وهروبِهِ أمام الجموعِ الغفيرةِ التي تنتظرُهُ من الفرنجِ .

بدءُ سقوطِ عكا

احتشدَتْ جموعُ الفرنجِ على أبوابِ عكا وحولَ أسوارِها ، وتقدمتِ المشاةُ وخلفهمُ الفرسانُ واجتازوا الخندقَ وعلّقوا بدنةً على السورِ بعد أن حَشَوها وأحرقوها ، وانتشَر دخانُها وألسنةُ لهيبِها ، فسقط السورُ ودخل جنودُ الفرنجِ ، فتصدّى لهمْ المسلمون ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وحرصوا على منعِهم من الانتشارِ داخلَ المدينةِ وقتلوا ستةً من قادتِهم فاشتدّ حنق الفرنج ، وغضبوا لمقتَلِ قادتِهم ، وحملوا على المسلمين ليتغلّبوا عليهم ، وينتقموا لقادتِهم ، فأقبل الليلُ فحال بين الفريقين .

وفي صباحِ اليومِ التالي خرج أميرُ عكا وهو أحمدُ بنُ المشطوبُ فاجتمع بفيليبَ ملكِ الفرنسيين ، وطلب منه الأمانَ للناسِ ويخلي لهمُ المدينةَ ، فلم يجِبْهُ إلى ذلك ، وقال له : بعد أن سقط السورُ ، وأوشكَتِ المدينةُ أن تسقطَ جئتَ تطلبُ الأمانَ . . . ؟

فردّ عليه ابنُ المشطوبِ ، وأغلَظَ له القولَ ، ثم غادر

مجلسَهُ وهو في حالةٍ نفسيةٍ صعبةٍ وقاسيةٍ بسببِ ما تعرَّضَ له من موقفٍ حرجٍ وضعيفٍ .

فلمّا اجتمع بالناس وأخبرَهم بما حصل له مع فيليبَ خافوا على مدينتهم وأهليهم ، وأرسلوا إلى صلاحِ الدينِ يُعلِمونه بما وقع ، فأرسل إليهم أن يخرجوا فوراً من المدينةِ عن طريقِ البحرِ ، وأن لا يبقى مسلمٌ هذه الليلةَ في المدينة إلا خرج منها .

فتأخر كثيرٌ من الناسِ بسببِ انشغالِهم بجمع الأمتعةِ والسلاحِ وتجهيزِ النساءِ والأطفالِ .

هذا . . . وكان مملوكان من أبناءِ الفرنجِ قد وقعا أسيرين بيدِ جندِ المسلمين ، وكانا يعملان في خدمةِ صلاحِ الدينِ ، فعلما بما أمرَ به صلاحُ الدينِ من إخلاءِ المدينةِ من أهلها ، وبالخطةِ التي عزم عليها من القيامِ بهجومٍ مفاجئ على الفرنجِ فتسللا خفيةً في الليلِ وهربا إلى قومِهما فذكرا لهم ما أمَرَ به صلاحُ الدينِ ، وما عزم عليه من الهجومِ .

وعلى الفورِ أعلَنَ الفرنجُ بتكثيفِ الحراسةِ على البحرِ وحولَ المدينةِ ومنعِ الناسِ من الخروجِ منها .

فلم يتمكّنْ أحدٌ أن يغادَر المدينــةَ ، أو أن يقـومَ بحركـة واحـدةٍ ، ولم يوافـق الجيـشُ علـى خطـةِ صـلاحِ الديـنِ بالقيـامِ بمباغتة العـدو ، ورفـض أمـراءُ الجيـشِ أن يخـاطروا بجنودِهـم ، فوجد السلطانُ صلاحُ الدينِ نفسَهُ في موقفٍ لا يُحسَدُ عليـه ، فسلّم للأمـر الواقـع وذهـب إلى ملـوكِ الفرنـجِ يعـرضُ عليهـمُ الصلـحَ ، ويطلـبُ لأهـلِ المدينـةِ الأمـانَ ويطلـقَ عدتَهـم مـن الأسـرى الذيـن تحـت يـدِهِ مـن الفرنـج ، ويزيدَهـم صليـبَ الصلبوتِ .

فرفضوا ذلك ، واشترطوا عليه أن يطلقَ لهم كلّ أسيرٍ تحت يدِهِ ، ويطلقَ لهم جميعَ المدنِ الساحليةِ التي أَخَذَها منهـم ، ومعها بيتُ المقدسِ فإنهم إنما جاؤوا ليستردّوه منه .

فأبى عليهم ذلك ، وتمسَّك بما عرضَهُ هو عليهم .

سقوطُ عكا

وتبادلَ صلاحُ الدينِ مع ملوكِ الفرنجِ المراسلاتِ ، وكَثُرَتْ بينه وبينهمْ الاجتماعاتُ والمفاوضاتُ ، وتمسَّكَ كلُّ فريقٍ بشروطِهِ ، ولم يتنازلْ أحدٌ منهم عن شرطٍ واحدٍ وازدادَ الفرنجُ شراسةً ، وشددوا حصارَهم على أسوارِ عكا ، وكثّفوا هجماتِهم ، وأوغلوا في وحشيتِهِم ، وبالغوا في القتال ، وركزوا على هدمِ الأسوارِ فهدموا ثلماتٍ كثيرةً ، فبادر المسلمون لمنعِهم من دخولِها ، وصدّوا هجماتِهم بكل بسالةٍ وشجاعةٍ ، وضربوا أروعَ الأمثلةِ في الصبرِ والثباتِ دفاعاً عن مدينتهم ، وصبروا صبرَ الأبطالِ الميامين ، وسدّوا الثغراتِ المتهدمةَ بصدورِهم ، وقاوموا العدوَّ بنحورِهم حتى استُشهِدَ عددٌ كبيرٌ منهم .

وقد برهنوا على صدقِهِم وإخلاصِهِم في الجهادِ والدفاعِ عن الشرفِ والدينِ ، والأرضِ والوطنِ أنْ أخبروا صلاحَ الدينِ في آخرِ أمرِهم ، وفي الوقتِ الذي لم يبقَ منهم سوى حفنةٍ من المقاتلين ، يقولون له :

(يا مولانا ، لا تخضعْ لهؤلاء الملاعينِ الذين قد أبَوا عليك الإجابةَ إلى ما دعوتَهم فينا ، فإنا قد بايعناكَ على الجهادِ حتى نقتَلَ عن آخرِنا ، وا لله المُستعانُ) .

وفي ظهيرةِ اليوم السابعِ من جمادى الآخرةِ من سنةِ سبعٍ وثمانين وخمسمائةٍ فوجئَ الناسُ بأمرٍ عظيمٍ ، وخطبٍ جسيمٍ ، أرهَبَهم وأذهَلَهم ، وجعلهم في دهشةٍ وحيرةٍ ، لقد فُوجِئوا بأعلامِ الفرنجِ على أسوارِ المدينةِ قد رُفِعَتْ ، وبصلبانِهم على أبراجِها نُصِبَتْ ، وبنيرانِهم في كلِ مكانٍ أُوقِدَتْ ، وأصواتِ الفرنجِ هنا وهناك تردَّدَتْ وتصاعَدَتْ ، فعَظُمَتْ عند ذلك عليهمُ المصيبةُ ، واشتّد بهمُ الألمُ والحزنُ وألّمتْ بهم بهتةٌ عظيمةٌ ، وأصابتهم حَيرةٌ شديدةٌ ، وغشَيتْهُم سحابةٌ من الكآبةِ والمرارةِ ما لو وُزِعَتْ على أهلِ الدنيا لكفتْهم جميعاً .

وكثر بين الناسِ الصياحُ والعويلُ ، وانحصر كلامُهم في قولِ : إنا للهِ وإنا إليه راجعون ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا با للهِ العلي العظيمِ .

وجاء المركيزُ صاحبُ صورٍ لعنه ا لله ، وهو الذي غادر

حصارَ عكا خوفاً من أن تؤخَذَ صورٌ منه ، وتخلّى عن قومِهِ وبني جلدتِهِ ، وحين مالتْ كفّةُ المعركةِ لصالحِهم ، ودخلوا عكا عاد إليهم بهدايا ثمينةٍ قدّمها إلى ملوكِ الفرنجِ ، ودخل مدينةَ عكا بأربعةِ أعلامٍ نصبها على أماكنَ حساسةٍ وهامةٍ في المدينةِ :

فنصب واحداً على مئذنةِ المسجدِ الجامعِ ، وآخرَ على القلعةِ ، وآخَرَ على برجِ الداويةِ [1] ، وآخرَ على برجِ القتالِ ، وأنزل أعلامَ السلطانِ صلاحِ الدينِ .

واعتَقَلَ جميعَ مَنْ في المدينةِ من المسلمين ، وجعلهم في موضعٍ ضيّقٍ ، وأسَرَ النساءَ والأطفالَ ، وسرقَ الأمتعةَ والأموالَ ، وقيَّدَ الفرسانَ والأبطالَ وأهانَ جميعَ المواطنين والرجال والحربُ سجال ، وما جرى ما هو إلاّ ابتلاءٌ وامتحانٌ واختبارٌ من الله الواحد القهّار ، وهو القائل في كتابِهِ العزيز : ﴿ أحسِبَ الناسُ أن يُتْرَكوا أنْ يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون . ولقد فتنّا الذين من قبلِهم فليَعْلَمَنَّ الله الذين صدقوا ولَيَعْلَمَنَّ الكاذبين . ﴾ [2] صدق الله العظيم .

---

(١) الداوية : هم فرسان المعبد .

(٢) الآيتان ٢ – ٣ من سورة العنكبوت .

على هامشِ سقوطِ

عكا

سقطتْ مدينةُ عكا ، ودخلهـا الصليبيون الغـاصبون ، وعاثوا فيها الفسادَ ، وعرّضوا أهلَها للـذلِ والإهانـةِ مـن قتـلٍ ونهـبٍ ، وسـرقةٍ وغصـبٍ وسـطوٍ وأسـرٍ وسـلبٍ ، ومعاملـةٍ وحشيةٍ سيئةٍ بشعةٍ لا تعرفُ معنى الرحمةِ والإنسانيةِ .

وعلى أي حالٍ إنها الحربُ ، وماذا يتوقعُ شـعبٌ قليـلٌ مغلوبٌ من عدوّ لئيمٍ وحاقدٍ وشرسٍ . . . ! ! . . . ؟ ؟

إنَّ السلطانَ صلاحَ الدينِ ومَنْ معه من جنـدِ المسـلمين لم يقصروا في الدفاعِ عن مدينةِ عكا ، ولم يتردّدوا لحظةً واحـدةً عـن حمايتِهـا وإغاثـةِ أهلِهـا ، ولقـد بذلـوا جهـوداً مشـكورةً ، وقاموا بمحاولاتٍ شجاعةٍ وجريئةٍ ، وضربوا أروعَ الأمثلةِ ، في التصدّي للعدوِ الغاشمِ دفاعـاً عنهـا ولكـن قـدَّرَ الله ومـا شـاء فعل ، ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً ، فكانت الطامةُ الكـبرى ، وكان سقوطُ مدينةِ عكا ، فكان الألمُ ، وكان الحـزنُ ، وكـان المصابُ . . . وكانتِ الهزيمةُ . . . ، وكـانتِ المـرارةُ ، وبـاتَتْ

عكا حزينةً كئيبةً ، وأضحَتْ بيوتُها خاليةً ساكنةً يظلّلُها حـزنٌ عميقٌ فيه هيبةٌ ورهبةٌ .

لقد أظلَّها هذا الحزنُ العميقُ المليءُ باللوعـةِ والأسى ، ولكنه ليس مليئاً باليأسِ ولا الخـوفِ ولا الإشـفاقِ مـن معـاولِ الهدمِ والتخريبِ ، إنما ملـيءٌ بـالإصرارِ على الجهـادِ والنضـالِ ومقاومـةِ العـدوِ حتى طـردِهِ وتحريـرِ مدينـةِ عكـا مـن شـرهِ وفسَادِهِ .

إنّ عـاملَ العـددِ والكثرةِ لعِـبَ دوراً كبـيراً في حسـمِ معركةِ عكا لصالحِ الفرنجِ الذين قَدِمـوا بـأعدادٍ هائلـةٍ وجمـوعٍ غفيرةٍ إلى ساحلِ عكا لمساندةِ قواتِهم في حصارِهـا ، في الوقـتِ الذي راسَلَ صلاحُ الدينِ ملكَ الموحديـن يعقـوبَ بـنَ يوسـفَ الملقبَ بالمنصورِ وطلـب منـه أن يسـاعدَه عسـكرياً لفـكِ هـذا الحصارِ ، وطردِ الصليبيين من حول عكا ومن ثمّ طردِهِـم مـن بلادِ الشامِ ، فرفض المنصـورُ طَلَبـه لأمـورٍ ذكرتُهـا في الرسـالةِ السابقةِ في معركـةِ (فتـحِ بيـتِ المقـدسِ) فـلا حاجـةَ لذكرِهـا هنا ، فلتراجَعْ هنالك .

لذلك لم يستطعِ المسلمون مع قلـةِ عددِهـم أن يصـدّوا

الفرنجَ أو يمنعوا تدفُقَ قواتِهِم وسيطرتَها على البحرِ الأبيضِ رغم الصمودِ المشرفِ ، والدفاعِ القوي من المسلمين في حربِهِمُ الطويلةِ ، ورغم استبسالِ أهلِ عكا واستماتتهم في الدفاعِ عن مدينتِهِم ، ولكن كما يقالُ : الكثرةُ تغلبُ الشجاعةَ ، والعينُ لا تقابلُ المخرزَ . . . !!

ويجبُ الاعترافُ بما جرى ، والتسليمُ بسقوطِ مدينةِ عكا والإقرارُ بأنَّ الفرنجَ انتصروا فيها ، واحتلوها ، وانطلق جنودُهم يرتعون فيها ، ويتصرفون كما يتصرفُ الجيشُ المنتصرُ بعدوهِ المغلوبِ ، فكيف إذا كان المنتصرُ شرساً لئيماً . . . !! وماذا يتوقعُ منه أن يفعلَ . . . ! !

الغدرُ

لم يقفْ صلاحُ الدينِ مكتوفاً بعد سقوطِ مدينةِ عكا ، ولم يكتفِ بمجردِ الإقرارِ بالواقعِ ولم يكُنْ ليدَعَ الفرنجَ يتصرفون بأهلِ عكا كما يحلو لهم ، وإنما أخذ يراسلُ ملوكَهم بشأنِ تبادلِ الأسرى وعدمِ التعرضِ للسكانِ بسوءٍ .

فطلبوا منه جميعَ ما لديه من الأسرى ، ومائةَ ألفِ دينارٍ ، وصليبَ الصلبوت وهو أكبرُ الصلبانِ .

فاستجاب لذلك ، ونفّذ لهم ما طلبوا ، ويبدو أنهم لم يطمئنوا لكلامِهِ وداَخَلَهُم الشكُّ وطلبوا منه أن يريَهُمُ الصليبَ من بعيدٍ ليتأكدوا من وفائِهِ وصدقِ وعدِهِ .

فرفعه لهم ، فلما رأوه من بعيدٍ سجدوا له وألقوا بأنفسِهِم إلى الأرضِ ، ثم طلبوا منه أن يحضرَ لهمُ المالَ والأسرى ، فامتَنَعَ إلا أن يرسلوا إليه أسرى المسلمين ، أو يبعثوا إليه برهائنَ على ذلك .

فقالوا : لا ، أحضِرْ لنا المالَ وأسرانا وارضَ بأمانتِنا .

فدخل في نفسِهِ الشكُّ ، وعرف أنهم يريدون الغدرَ

والمكرَ ، فلم يرسلْ إليهم شيئاً لا المالَ ولا الأسرى ، وأمر بردِ الصليبِ إلى دمشقَ مُهاناً .

فكان تصرفُ الفرنج على غايةٍ من البطشِ والوحشيةِ ، فأحضروا أسرى المسلمين وكانوا ثلاثةَ آلافٍ ، فأوقفوهم بعد العصرِ وقتلوهم جميعاً في لحظةٍ واحدةٍ دون أن تأخذَهم بهم رحمةٌ أو شفقةٌ ، وبدونِ رادعٍ من إنسانيةٍ أو ضميرٍ ، فلقد برهنوا بهذا التصرفِ الطائشِ والأرعن أنهم من أكابرِ مجرمي الحربِ ، ومن محبي القتلِ والبطشِ وسفكِ الدماءِ ، وعرضوا أنفسَهم للعنةِ الله والتاريخِ والإنسانيةِ ، وأثبتوا للدنيا بأسرِها أنهم قومٌ بدائيون همجٌ ، ولصوصٌ وقُطّاعُ طرقٍ ، لا يعرفون معنى الرحمةِ ، ولا يلتزمون بعهدٍ ولا ميثاقٍ ، ولا يرعَون في خصومِهم إلاًّ ولا ذمةً . . . ! !

وهذا الوصفُ لم يأتِ من أعدائِهم ومبغضيهم إنما جاء على لسانِ أحدِ مفكريهم .

جاء في كتابِ (حضارة الغربِ) لجوستاف لوبون ، وهو فرنسيٌ مسيحيٌ : (كان أولَ ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزي أنه قتل أمام معسكرِ المسلمين ثلاثةَ آلافِ أسيرٍ سلّموا أنفسَهم إليه ، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقنِ

دمائِهِم ، ثم أطلق لنفسِهِ العنانَ باقترافِ القتلِ والسلبِ ، مما أثار صلاحَ الدينِ الأيوبي النبيلَ الذي رحِمَ نصارى القدسِ ، فلم يمسَّهم بأذى ، والذي أمدَّ فيليبَ وقلبَ الأسدِ بالمرطباتِ والأدويةِ والأزوادِ أثناءَ مرضِهِما . . . ! ! [1] .

وكتب كاتبٌ مسيحيٌ آخرُ اسمُهُ (يورجا) يقولُ :

(ابتدأ الصليبيون سيرَهم على بيتِ المقدسِ بأسوأِ طالعٍ ، فكان فريقٌ من الحجاجِ يسفكون الدماءَ في القصورِ التي استولَوا عليها ، وقد أسرفوا في القسوةِ فكانوا يبقرون البطونَ ، ويبحثون عنِ الدنانيرِ في الأمعاءِ .

أما صلاحُ الدين ، فلمّا استردَّ بيتَ المقدسِ بذلَ الأمانَ للصليبيين ، ووفّى لهم بجميعِ عهودِهِ ، وجاد المسلمون على أعدائِهِم ووطّؤوهم مهادَ رأفتِهِم ، حتى إنَّ الملكَ العادلَ شقيقَ صلاحِ الدينِ أطلق ألفَ رقيقٍ من الأسرى ، ومَنَّ على جميعِ الأرمنِ ، وأذِنَ للبطريركِ بحملِ الصليبِ وزينةِ الكنيسةِ ، وأبيحَ للأميراتِ والملكةِ بزيارةِ أزواجِهِنَّ) [2] .

---

(١) عن كتاب الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام للأستاذ علي علي منصور .

(٢) المرجع السابق .

وبنظرة فاحصةٍ ، ومقارنةٍ منصفةٍ يبدو لنا بجلاءٍ ووضوحِ الفارقُ الكبيرُ بين أخلاقٍ إنسانيةٍ عادلةٍ فاضلةٍ قائمةٍ على التسامحِ والنبلِ والرحمةِ ، مستمدةٍ من سماحةِ الإسلامِ وعدالتهِ وروحِ تشريعه ، وبين أخلاقٍ سيئةٍ همجيةٍ لا تعرفُ سوى القتلِ والتدميرِ والوحشيةِ ، ولا تحترمُ وعداً ، ولا تلتزمُ بعهدٍ ولا ميثاقٍ ، ولا ترعى في الله والإنسانية إلاًّ ولا ذمةً . . . ! !

ولقد قتلوا في هذا المشهدِ ثلاثةَ آلافٍ من الأسرى المسلمين ، قتلوهم عن آخرِهِم في ساعةٍ واحدةٍ ، وفي صعيدٍ واحدٍ ، ولم يتركوا من المسلمين سوى أميرٍ أو صبيٍ ، أو مَنْ رأوه قوياً صالحاً للعملِ والخدمةِ ، وجرى الذي كان ، وقُضيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان . هذا . . . وكانَتْ مدةُ إقامةِ صلاحِ الدينِ رحمه الله تعالى على عكا صابراً مصابراً مرابطاً في سبيلِ اللهِ يقاتلُ الصليبيين ، ويدفعُ جموعَهم سبعةً وثلاثين شهراً .

وكان جملةُ مَنْ قُتِلَ من جنودِ الفرنجِ في هذا الحصارِ خمسين ألفاً .

آدابُ القتالِ في الإسلامِ

بعد أنِ احتلَّ الصليبيون مدينةَ عكا ، وثبّتوا أقدامَهم فيها ، توجّهوا نحو عسقلانَ طامعين باحتلالِها كما احتلّوا عكا ، وصلاحُ الدينِ ينظرُ إليهم ويرقبُ تحركاتِهم ، فسار إليهم بجيشِهِ يعارضُهم منزلةً . . . منزلةً ، وجنودُ المسلمين يقاتلونهم ويتخطّفونهم في كلِ مكانٍ ، ويقتلون منهم ويأسرون ويسلبون ، وكلُّ أسيرٍ يؤتى به إلى صلاحِ الدينِ يأمرُ بقتلِهِ في مكانِهِ انتقاماً لقتلى المسلمين والأسرى الذين قتِلوا في لحظةٍ واحدةٍ ، لقد رأى صلاحُ الدينِ رحمه الله تعالى أنَّ الرحمةَ والمعاملةَ الإنسانيةَ لا تنفعُ مع هؤلاءِ الهمجِ الرعاعِ الذين أحسَنَ إليهم فأساؤوا إليه وإلى جنودِ المسلمين ولم يحترموا عهداً ولا ميثاقاً ، فرأىَ أنَّ قتل جميعِ مَنْ يؤتَى إليه من الأسرىَ يجبُ فوراً ، عملاً بقولِ اللهِ تعالى :

﴿ الذين عاهدْتَ منهم ثم ينقضون عهدَهم في كلِ مرةٍ وهم لا يتّقون . فإمّا تثقفنّهم في الحربِ فشّرِدْ بهم مَنْ خَلْفَهم لعلهم يذّكّرون . وإماّ تخافَنّ من قومٍ خيانةً فانبذْ إليهم على سواءٍ إنَّ اللهَ لا يحبُّ الخائنين . ولا يحسَبَنَّ الذينَ كفروا

سبقوا إنهم لا يُعجِزون ﴾ [1] صدق الله العظيم .

وليس في هذا الحكم ظلمٌ ولا قسوةٌ ولا عدوانٌ ، إنما هو بمثابةِ ردّ العدوانِ والتعامُلِ بالمثلِ ، ﴿ ذلك بما قَدَّمَتْ أيديكُم وأنَّ الله ليس بظلّامٍ للعبيدِ . ﴾ [2] وعملاً بقولِه تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُ المعتدين . واقتلوهم حيثُ ثقفتموهم وأخرجوهم من حيثُ أخرجوكم والفتنةُ أشدُّ من القتلِ ولا تقاتلوهم عند المسجدِ الحرامِ حتى يقاتلوكم فيه فإنْ قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاءُ الكافرين . فإن انتَهوا فإنَّ الله غفورٌ رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ للهِ فإنِ انتهوا فلا عدوانَ إلاّ على الظالمين . الشهرُ الحرامُ بالشهرِ الحرامِ والحُرُماتُ قصاصٌ فَمَنِ اعتدىَ عليكم فاعتدوا عليه بمثلِ ما اعتدىَ عليكم واتقوا الله واعلموا أنَّ الله مع المتقين ﴾ [3] صدق الله العظيم .

هذه الآياتُ الكريمةُ تحملُ بعضاً من آدابِ الجهادِ الكثيرةِ والإنسانيةِ في دينِ الإسلامِ الحنيفِ ، إنها تأمرُ المسلمين

---

(١) الآيات ٥٦ - ٥٩ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٥١ من سورة الأنفال .

(٣) الآيات ١٩٠ - ١٩٤ من سورة البقرة .

بقتـالِ الذيـن يقـاتلونهم ، وفي نفـسِ الوقـتِ تنهـاهُمْ عـنِ العدوانِ . يقولُ أحدُ المفكرين الإسلاميين : تبـدأ الآيـاتُ بـأمرِ المسلمين بقتالِ هؤلاءِ الذين قـاتلوهم ومـا يزالـون يقـاتلونهم ، وبقتالِ مَنْ يقـاتلُهم في أي وقـتٍ وفي أي مكـانٍ ، ولكـن دون اعتداءٍ .

(وقاتلوا في سبيلِ ا للهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتـدوا إنَّ ا للهَ لا يحبُ المعتدين) .

وفي أولِ آيةٍ مـن آيـاتِ القتـالِ نجدُ التحديـدَ الحاسـمَ لهدفِ القتـالِ ، والرايـةَ الـتي تُخاضُ تحتهـا المعركـةُ في وضـوحٍ وجلاءٍ ، (وقاتلوا في سبيلِ ا للهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا)

والعـدوانُ يكـونُ بتجـاوزِ المحـاربينِ المعتديـن إلى غـير المحاربين مـن الآمنـين المسـالمين الذيـن لا يشـكلون خطـراً علـى الدعـوةِ الإسـلاميةِ ، كالنسـاءِ والأطفـالِ والشـيوخِ والعُبّـادِ المنقطعين للعبادةِ من أهلِ كلِ ملةٍ ودينٍ .

كما يكونُ بتجاوزِ آدابِ القتالِ التي شَرَعَها الإسلامُ ، ووضَعَ بهـا حـداً للشـناعاتِ الـتي عَرَفَتْهـا حـروبُ الجاهليـاتِ الغابرةِ التي ينفرُ منها حسُّ الإسلامِ ، وتأباها تقوىَ الإسلامِ .

وما كان غيرَ ذلك فهي حربٌ غيرُ مشروعةٍ في حكمِ الإسلامِ ، وليس لمن يخوضُها أجرٌ عند ا للهِ ولا مقامٌ .

صورٌ من آدابِ القتالِ في الإسلامِ

في مناسبةِ ذكرِ آدابِ القتالِ في الإسلامِ ينبغي ذكرُ بعضِ وصايا رسول اللهِ ﷺ ووصايا أصحابهِ لتكشفَ لنا عن طبيعةِ الإسلامِ الحنيفِ ، وتقريرِ آدابِ القتالِ تلك الآدابُ التي لم تعرفْها البشريةُ إلاّ في ظلِ الإسلامِ .

١- عنِ ابنِ عمَر رضي الله عنهما قال : (وُجِدَتِ امرأةٌ مقتولةٌ في بعضِ مغازي رسولِ الله ﷺ ، فنهى رسولُ الله ﷺ عن قتلِ النساءِ والصبيانِ) [١] .

٢- وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : (إذا قاتَلَ أحدكُم فلْيجتنِبِ الوجهَ) [٢] .

٣- وعن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : (أَعَفُّ الناسِ قِتلةً أهلُ الإيمانِ) [٣] .

(١) أخرجه مالك والشيخان وأبو داود والترمذيّ .

(٢) رواه الشيخان .   (٣) رواه أبو داود .

٤- وعن عبدِ اللهِ بنِ يزيدَ الأنصاري رضي الله عنه قال : (نهى رسولُ اللهِ ﷺ عنِ النُّهبىَ والمُثْلة) [1] .

٥- وعنِ ابنِ يعلَى قال : (غزونا مع عبدِ الرحمنِ بنِ خالدِ بنِ الوليدِ ، فأُتيَ بأربعةِ أعلاجٍ [2] من العدوِ ، فأمر بهم فقُتِلوا صبراً بالنبلِ ، فبلغ ذلك أبا أيوبَ الأنصاريَّ رضي الله عنه فقال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ ينهَى عن قتلِ الصبر ، فو الذي نفسي بيدِهِ ، لو كانت دجاجةٌ ما صَبَرْتُها .

فبلغ ذلك عبدَ الرحمنِ بنَ خالدٍ فأعتق أربع رقاب) [3] .

أي فعل ذلك كفارةً منه عن قتلِ الخطأِ .

٦- وعنِ الحارثِ بنِ مسلم بن الحارثِ عن أبيه رضي الله عنه قال : (بَعَثَنا رسولُ اللهِ ﷺ في سريةٍ ، فلما بلغنا

---

(١) رواه البخاري .

(٢) العلج : الرجل الضخم من كفار العجم ، وبعضهم يطلقه على الكافر مطلقاً ، والجمع علوجٌ وأعلاجٌ .

(٣) رواه أبو داود .

المغارَ [1] استحثَثْتُ فرسي فسبقتُ أصحابي ، فتلقّاني أهلُ الحي بالرنينِ ، فقلتُ لهم : قولوا لا ألهَ إلاّ الله تُحرَزوا.

فقالوا .

فلامَني أصحابي ، وقالوا : حرمتَنا الغنيمةَ . . . !

فلما قدِمنا على رسولِ الله ﷺ أخبروه بالذي صنعتُ ، فدعاني ، فحسَّنَ لي ما صنعتُ ، ثم قال لي : إنَّ الله تعالى قد كتب لك بكلِ إنسانٍ منهم كذا وكذا من الأجرِ) [2] .

٧- وعن بُرَيدةَ قال : (كان رسولُ الله ﷺ إذا أمّرَ الأميرَ على جيشٍ أو سريةٍ أوصاه في خاصتِهِ بتقوىَ اللهِ تعالى ، وبِمَنْ معه من المسلمين خيراً ، ثم قال له : اغزوا باسمِ اللهِ ، في سبيلِ اللهِ ، قاتلوا مَنْ كفر باللهِ ، اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً) [3] .

٨- وعن أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه أنه قال في وصيتِهِ لجندِهِ : (ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسَهم

---

(١) المغار : هو موضع الإغارة على العدو .

(٢) رواه أبو داود في سننِهِ .

(٣) رواه مسلم وأبو داود والترمذي .

للهِ ، فدعوهم وما حبسوا أنفسَهم له ، ولا تقْتُلنَّ امرأةً ولا صبياً ولا كبيراً هَرماً) [1] .

هذه بعضُ آدابِ الإسلامِ في القتالِ ، وهذه بعضُ توجيهاتِهِ في قتالِ الأعداءِ . . . ! ! إنها تنبثقُ من التوجيهِ القرآني الجليلِ ، وتعاليمِهِ السامية ، ورحمةِ الإسلامِ الواسعةِ ، وسماحتِهِ العاليةِ . . . !

فهل يوجَدُ في دنيا الناسِ آدابٌ كريمةٌ ، وأخلاقٌ عاليةٌ ، ورحمةٌ واسعةٌ ، وتعامُلٌ إنسانيٌّ ، وتسامحٌ عظيمٌ مع الأعداءِ ، وفي ساحةِ القتالِ . . . ؟ إلا في ظلِ الإسلامِ ، وتعاليمِ القرآنِ ، وحياةِ أبنائِهِ . . . ! !

وهل عَرَفَتِ البشريةُ على امتدادِ القرونِ الطويلةِ ، وفي حروبِها الكثيرةِ آداباً مثلَ هذه الآدابِ . . . ؟ وأخلاقاً مثلَ هذه الأخلاقِ . . . ؟ وتعاملاً إنسانياً ، وتسامحاً مع الأعداءِ ، وفي ساحاتِ القتالِ ، وحوماتِ الوغَى كما عرفَتْهُ في الإسلامِ ؟ وفي أخلاقِ أبنائِهِ . . . ؟ اللهم ، لا .

---

(١) رواه مالك في الموطأ .

معركة عسقلان [1]

حين ذهب الصليبيون إلى مدينةِ عسقلانَ ليحتلوها ، تبعهم صلاحُ الدينِ والتقى معهم في معاركَ كثيرةٍ ، وجولاتٍ متتابعةٍ ، حتى أعجَزَهم وألحق بهم خسائرَ جسيمةً في الأرواحِ والعتادِ ، فاضطُّرَ ملكُ الإنكليز ، ولعلّهُ ريكاردوس أو ريشارد قلبُ الأسدِ لاختلافٍ في الرواياتِ أن يطلبَ الاجتماعَ بالملكِ العادلِ أخي صلاحِ الدينِ .

فأجابه الملكُ العادلُ إلى ذلك ، فلما اجتمع به طلب منه الصلحَ والأمانَ على أن يعيدَ لهم صلاحُ الدينِ بلادَ الساحلِ كلَّها .

فسخر منه الملكُ العادلُ ، وأغلظ له في القولِ ، وأجابه متهكماً : إنّ دونَ ذلك قتلَ كلِ فارسٍ منكم وراجلٍ .

فغضب ريكاردوس وغادر المجلسَ وفيه من الغضبِ

(١) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين .

والحنقِ ما لا يوصَفُ ، ثم لحق بجيشِـهِ ، فجمـع قـوّادَه وملـوكَ الفرنـجِ وزحـف بهـم إلى غابـةِ أرسـوفَ [1] لحـربِ السـلطانِ صلاحِ الدينِ الذي توقَّعَ منهـم ذلـك ، فجمـعَ جموعَـهُ والتقـى بهم عند غابةِ أرسوفَ في معركةٍ قويةٍ وطاحنـةٍ كـانَتِ الدائـرةُ فيها على الفرنجِ الذين قُتِلَ منهم يومئذٍ ألوفٌ بعد ألوفٍ .

وكان جيشُ المسلمين قد فَرَّ في بدايةِ المعركةِ ، ولم يبـقَ حـول صـلاحِ الديـنِ سـوىَ سبعةَ عشَـر رجـلاً ، وهـو ثـابتٌ كالطودِ العظيم يقاتلُ بمَنْ بقيَ معه ، ويردُّ جموعَ المعتدين وكأنه ينادي الفارّين من المسلمين كما نادىَ رسولُ الله ﷺ أصحابَـهُ من قبل في معركةِ أحدٍ ، ومعركةِ حُنَين .

وكـأني بصـلاحِ الديـنِ يلهـبُ حمـاسَ المسـلمين ، ويناديهم : يا أصحابَ صلاحِ الدينِ ، يا أتباعَ محمدٍ ﷺ . ! !

يا أمةَ القرآنِ ، يا حفظةَ القرآن ، لا تفروا أمام الغـزاةِ الطامعين أصحابِ الصليبِ يا مَنْ أكرمَكُمُ الله تعالى بالقرآنِ ، لا تجعلوا قرآنَكم يفرُّ أمام صليبِهـم ، فـ (كـم مـن فئـةٍ قليلـةٍ

(١) : أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا .

غلبَت فئةً كثيرةً بإذنِ اللهِ واللهُ مع الصابرين) [1] .

هذا . . . وإذا بجنودِهِ قد حضروا حوله دفعةً واحدةً ، كأنهم قَدِموا إليه قدومَ رجلٍ واحدٍ ، فضاعفوا جهودَهم ، وشدّوا على أعدائِهم شدةً قويةً جعلتِ المعركةَ تتغيرُ في لحظةٍ لصالحِ المسلمين بعد أن هربوا وكادَتِ الدائرةُ تدورُ عليهم لولا لطفُ اللهِ ونصُرهُ وتأييدُهُ ، ﴿ إنّ اللهَ مع الذين اتقوا الذين هم محسنون ﴾ [2] .

---

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية . ١٢٨ من سورة النحل .

خرابُ مدينةِ عسقلانَ

تراجعَتْ جموعُ الصليبيين في معركةِ عسقلانَ ، فكان النصرُ حليفَ المسلمين ، ومضى صلاحُ الدينِ بجنودِهِ فنزل على مشارفِ عسقلانَ ، فأشار عليه الأمراءُ وأصحابُ الآراءِ السليمةِ بتخريبِ عسقلانَ وفي ذلك قتلٌ لأطماعِ الفرنجةِ فيها ، فإنه إن أبقاها على ما هي عليه ازدادَتْ أطماعُ الفرنجةِ واتخذوها وسيلةً إلى أخذِ بيتِ المقدسِ .

أو ربما جرى حولها من القتالِ مثلما جرى حول مدينةِ عكا أو أكثرَ ، ومن الأفضلِ تخريبُها وتجنيبُ المسلمين مشاكلَ وحروباً ملّوها وسئموا منها .

وبات صلاحُ الدينِ ليلَهُ قلقاً بشأنِ عسقلانَ وما اقترح عليه جنودُهُ ، وأمضى الليلَ بطولِهِ مفكراً ما هو فاعلٌ حيالَ هذا الأمرِ .

فأوقَعَ اللهُ في قلبِهِ أنّ خرابَها هو الأفضلُ لصالحِ المسلمين ، وإنْ كان صعباً وأليماً عليه قبل أن يكونَ صعباً وأليماً عليهم ، ولقد عبَّر عن ذلك حين قال لجنودِهِ : واللهِ

لموتُ جميعِ أبنائي أهونُ عليَّ من تخريبِ حجرٍ واحدٍ منها ، ولكنْ إذا كان خرابُها فيه مصلحةٌ للمسلمين فلا بأسَ به .

ثم دعا الولاةَ وأمَرَهم بتخريبِها سريعاً قبل وصولِ العدوِ إليها .

فشرع الناسُ في خرابِها، وكأن قلوبَهم تحترقُ كلما هدموا حجراً ، أو أسقطوا سقفاً ، هذا وأهلُ البلدِ ينظرون ويتباكون على منازِلِهم ومزارِعِهم ، وطيبِ مقيلهم ، وقد حزنوا على ذلك حزناً شديداً ، وبكَوا عليه دمعاً شجياً .

لقد حزنوا على ما غرسوا من جنانٍ ، وما شادوا من قصورٍ وما شكلوا من حدائقَ ومزارعَ وبساتين ذاتِ بهجةٍ ، ولكنهم عزَّوا أنفسَهم بأن رضوا بذلك كيلا يستفيدَ العدوُّ منها ، فجعلوا يحرقونها بأيديهم ، ويلقون النارَ في سقوفِ المنازلِ ، ويتلفون ما في الأرضِ من غلاتٍ لا يمكنُ تحويلُها ، ولا نقلُها ، ولم يزلِ الخرابُ فيها ، والحريقُ يلتهمُ كلَّ شيءٍ من محاصيلِها ونتاجِها من جمادَى الآخرةِ إلى آخرِ شعبانَ من سنةِ سبعٍ وثمانين وخمسمائةٍ .

ثم غادرَها صلاحُ الدينِ وارتحل عنها في اليومِ الثاني

من شهرِ رمضانَ وقد تركها قاعاً صفصفاً ليس فيها معلمةٌ لأحدٍ .

ثم تحوّلَ إلى الرملةِ [١] فخرّب حصنها ، وهدَم كنيسةَ لُدٍّ [٢] ، وزار بيتَ المقدسِ ،وبينما هو في جولاتِهِ تلك جاءه كتابٌ من ريكاردوس ملكِ إنكلترا يقولُ له : إنّ الأمرَ قد طال ، وهلك الفرنجُ والمسلمون ، وإنما مقصودُنا ثلاثةُ أشياءَ لا سواها :

ردُّ الصليبِ ، وبلادِ الساحلِ ، وبيتِ المقدسِ ، ولا نرجعُ عن هذه الثلاثةِ وفينا عينٌ تطرفُ.

فأجابه صلاحُ الدينِ بأشدِ جوابٍ ، وأبلغِ ردٍّ ، وأسَدِّ مقالٍ .

فغضب ملكُ الإنكليزِ وجمع جموعَهُ ، وعزم على قصدِ بيتِ المقدسِ لاحتلالِهِ ، فتقدَّمَ صلاحُ الدينِ بجيشِهِ فدخل

---

(١) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين بينها وبين بيت المقدس ثمانية عشر يوماً .

(٢) لُدٌّ بالضم والتشديد : هو جمع ألد ، والألد : الشديد الخصومة ، قرية قرب بيت المقدس .

القدسَ ، وأقام فيها ، وشرع في تحصينِها ، وتعميقِ خنادِقِها ، وإقامةِ المتاريسِ حولَها ، وشارك في ذلك بنفسِهِ ، وعمل معه القادةُ والأمراءُ ، والقضاةُ والعلماءُ ، والصالحون والزعماءُ ، وجميعُ طبقاتِ الشعبِ وشرائِحِهِ ، فكان يوماً عظيماً مشهوداً ، شبيهاً بخندقِ المدينةِ الذي شارك فيه النبيُّ ﷺ وجميعُ المسلمين ، والنبيُّ ﷺ ينشدُ قولَ عبدِ الله بنِ رواحةَ رضي الله عنه :

اللهم لولا أنتَ ما اهتدينا ... ولا تصدّقنا ولا صَلّينا
فأنزلَنْ سكينةً علينا ... وثبّتِ الأقدام إن لاقينا
إنَّ الأُلَى قد بغَوا علينا ... وإنْ أرادوا فتنةً أبينا

مقتلُ المركيزِ صاحبِ صورٍ [1]

أقام صلاحُ الدينِ وجنودُهُ في مدينةِ القدسِ ، وقد أحكم حولَها الحراسةَ ، وأمَرَ بتشديد المراقبةِ ، والاحتراسِ الشديد من تسلُّلِ أحدٍ من الفرنجِ ، ذلك أنهم أقاموا حول القدسِ من جهةِ عسقلانَ وما والاها ، فلم يجرُؤوا أنَ يقتربوا من حدودِ المدينةِ لشدةِ الحراسةِ حولها ، ومع ذلك حَصَلَتْ مناوشاتٌ بينهم وبين حراسِ المسلمين ، إلا أنهم على نيةِ مهاجمةِ القدسِ مصممون لكنهم ينتظرون الفرصةَ التي تتيحُ لهم ذلك ، وجنودُ المسلمين لهم بالمرصادِ .

ولعلّ عاملَ العداوةِ القائمَ بين ملكِ إنكلترا والمركيزِ صاحبِ صورٍ هو الذي أشغل الفرنجَ وأبطَأَ هجومَهم على

---

(١) صور : مدينة مشهورة كانت من ثغور المسلمين ، مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد يحيط بها البحر من جميع جوانبها ، وهي حصينة جداً . انظر معجم البلدان .

بيتِ المقدسِ ، وأوقع بينهمُ الخلافَ .

ذلك أن ملكَ إنكلترا كان يبغضُ صاحبَ صورٍ بغضاً شديداً ، فاختار لقتلِهِ اثنين من جندِهِ الذين يثقُ بهم ، فأرسلهم إلى صورٍ فدخلا كنيستَها ، وأقاما فيها على أنهما من الرهبانِ ، حتى ظفرا به فقتلاه ، وقُتِلا أيضاً ، فاستناب ملكُ إنكلترا على صورٍ ابنَ أخيه ، وهو بنفسِ الوقتِ ابنُ أختِ فيليب ملكِ فرنسا ، وما إن دخل مدينةَ صورٍ وتسلَّم زمامَ أمورِها حتى دخل على زوجة المركيز بعد موتِهِ بليلةٍ واحدةٍ وهي حبلى ، وذلك لشدةِ ما يكنُّ له من العداوةِ والبغضاءِ .

وقد حاول صلاحُ الدين أن يقتلَهُ من قبلُ ولكنَّ المركيزَ كان قد صانَعَهُ بعضَ الشيءِ ، فلم يرضَ صلاحُ الدينِ أن يخونَ عهدَهُ فَعَدَلَ عن قتلِهِ ، فقيَّضَ ا لله تعالى له مَنْ قتلَهُ ، وأراح العبادَ والبلادَ من شرِهِ وفسادِهِ ، ﴿ وكذلك نولّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ﴾ [1] صدق ا لله العظيم .

---

(١) الآية ١٢٩ من سورة الأنعام .

استيلاء الفرنجِ على قلعةِ الداروم [1] وهدمُها

قام الفرنجُ الصليبيون بهجومٍ كبيرٍ ومفاجئ على قلعةِ الداروم فاستولَوا عليها وخرّبوها ، وقتلوا معظمَ أهلِها ، وأسروا النساءَ والأطفالَ والعُزَّلَ من السلاحِ ، وهدموا المنازلَ وأوقدوا فيها النيرانَ ، وزرعوا الخوفَ والذعرَ فيما حولها من المدنِ والقرى ، ثم غادروها وقد التهمتِ النيرانُ كلَّ شيءٍ ، ولم يبقَ فيها حجرٌ قائمٌ على حجرٍ .

ثم توجهوا بجيوشِهِمُ الجرارةِ نحو بيتِ المقدسِ ، فبرزَ لهم صلاحُ الدينِ بجيشِ الإيمانِ ، وقاتلهم قتالاً شديداً جعلهم ينكصون على أعقابِهِم فراراً ، راجعين من حيثُ أتَوا ، وعاد صلاحُ الدينِ ومَنْ معه من المؤمنين إلى القدسِ منتصراً مظفراً

(١) الداروم : قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، الواقف فيها يرى البحر إلا أن بينها وبين البحر مقدار فرسخ ، ويقال لها الدارون أيضاً. انظر معجم البلدان .

بعد أن رَدَّ ا لله الذين كفروا بغيظِهم لم ينالوا خيراً ﴿ وكفى ا لله المؤمنين القتالَ وكان ا لله قوياً عزيزاً ﴾ [١] صدق ا لله العظيم .

ولقد بيّتَ ملكُ إنكلترا الشرَّ للمسلمين ، واستعمل الغدرَ وسيلةً للانتقامِ والثأرِ وكان أكبَر ملوكِ الفرنجِ وأقواهم والمتصرفَ فيهم ، فهم جميعاً تحت إمرتِه وقيادتِه فظفر ببعضِ المسلمينَ وهجم عليهم ليلاً فقتل منهم عدداً كبيراً ، وسلب مالاً كثيراً ، وأسر خمسَمِائةِ أسيرٍ ، واستاق الجمالَ والخيلَ والبغالَ ، حتى بلغ جملةُ الجمالِ التي أخذها ثلاثةَ آلافِ بعيرٍ ، فساء ذلك صلاحَ الدينِ مساءةً عظيمةً ، واحتاط للأمرِ احتياطاً شديداً ، وقد توقّعَ هجوماً مفاجئاً في كلِ وقتٍ ، فعبّأَ جنودَهُ ، وجعلهم على أهبةِ الاستعدادِ للقاءِ العدوِ الغادرِ ، بعد أن حفر الخنادقَ ، ونصَبَ المجانيقَ ، وأمر بتغويرِ ما حول القدسِ من المياهِ التي امتلأتْ منها الخنادقُ ، فَغَدَتِ القدسُ وكأنها جزيرةٌ تتوسطُ البحرَ ، والمياهُ تحيطُ بها من كل جهةٍ . . . ! ! والحراسُ قد زُرِعوا على سورِها فلا يكادُ مترٌ واحدٌ من السورِ يخلو من الجنودِ . . . ! !

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأحزاب .

المبايعةُ على الموتِ

أرسل ملكُ إنكلترا إلى ملوكِ الفرنجِ المقيمين بالساحلِ أن يأتوه بجيوشِهِم للقيامِ بهجومٍ كاسحٍ على القدسِ ، ومباغتةِ المسلمين وإخراجِهِم منها .

فأقبلوا إليه بحدِهِم وحديدِهِم ، وغيظِهِم وحقدِهِم فاجتمع له منهم جيشٌ كبيرٌ وقويٌّ يستطيعُ به أن يتغلبَ على أكبرِ جيشٍ مهما بلغ من القوةِ والاستعدادِ .

ثم انطلق بهم إلى بيتِ المقدسِ ، فلم يستطيعوا الاقترابَ منها بسببِ غزارةِ المياهِ المتوضعةِ في الخنادقِ المحيطةِ بها ، فتسمّروا في أماكِنِهم ، وعسكروا حول الخنادق .

وفي ليلةِ الجمعةِ التاسعَ عشر من جمادى الآخرةِ سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمسِمائةٍ جمع صلاحُ الدين مستشاريه والأمراءَ وقوّادَ الجندِ ، واستعرض معهمُ الموقفَ ، وشاوَرَهم في الأمر .

فجعل كلٌّ واحدٍ يرى رأيَهُ ، ثم قام العمادُ الكاتبُ فتكلّم فأجاد ، واقترح عليهم أن يتحالفوا على الموتِ عند الصخرةِ اقتداءً بأصحابِ رسولِ الله ﷺ .

فأجابوه جميعاً إلى ذلك ، هذا كلُّهُ وصلاحُ الدينِ

سارحٌ مفكرٌ ، ساكتٌ واجمٌ ، يقلبُ الأمورَ ، ويدرُسُها لعلَّهُ يصلُ إلى حلٍ مناسبٍ .

فلما رآه القومُ كذلك سكتوا جميعاً كأنما على رؤوسِهِمُ الطيرُ ، ثم انطلق لسانُهُ قائلاً : (الحمد للهِ ، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ . أما بعدُ :

اعلموا أنكم جندُ الإسلامِ اليومَ ومَنَعَتُهُ ، وأنتم تعلمون أنَّ دماءَ المسلمين وأموالَهم وذراريَهم في ذممِكم معلقةٌ ، والله عز وجل سائلُكُم يومَ القيامةِ عنهم ، وأنَّ هذا العدوَّ ليس له مَنْ يلقاهُ عنِ العبادِ والبلادِ غيرُكم ، فإنْ ولّيتُم والعياذُ بالله طوى البلادَ ، وأهلَكَ العبادَ ، وأخذ الأموالَ والأطفالَ والنساءَ ، وعُبِدَ الصليبُ في المساجدِ ، وعُزِل القرآنُ منها والصلاةُ ، وكان ذلك كلُّهُ في ذممِكم ، فإنكم أنتمُ الذين تصدّيتم لهذا كلِهِ ، وأكلتُم من بيتِ مالِ المسلمين لتدفعوا عنهم عدوَّهم ، وتنصروا ضعيفَهم ، فالمسلمون في سائرِ البلادِ متعلقون بكم . . . والسلام) .

فقام سيفُ الدينِ عليُّ بنُ أحمدَ المشطوبُ ، وكان أميرَ عكا ، فأجابه قائلاً :

يا مولانا ، نحن مماليكُكَ وعبيدُك ، وأنت الذي أعطيتَنا وكبرّتنا وعظّمتَنا ، وليس لنا إلا رقابُنا ونحن بين يديكَ ، والله

ما يرجعُ منا أحدٌ عن نصرِكَ حتى يموتَ .

فتحمّس الجميعُ ، وأصابهم شعورٌ بالجهادِ الديني ، والدفاعِ الوطني ، ونهضوا جميعاً وقالوا مثلما قال ابنُ المشطوبِ ، وعاهدوه على القتالِ ضدَّ الفرنجِ والدفاعِ عن الوطنِ والشرفِ والعرضِ والدينِ .

فأشرق وجهُ صلاحِ الدينِ بالبشرِ ، وظهرَتْ عليه علاماتُ الفرحِ ، وبَدَتْ أساريرُهُ ، وزال ما به من همٍ وكربٍ ، ودعا لهم بخيرٍ ، وأجرى عليهمُ العطايا ، وأمر بإكرامِهم ، فرفضوا ذلك وقالوا : إنما هو واجبُنا ، وتعبيرُنا عن مسؤوليتنا تجاه ديننا ، وإننا لنبتغي بذلك وجهَ ا لله ونطلبُ منه أن يعينَنا ويكونَ معنا ، وينصرَنا على عدوِنا .

ولم يكادوا يودعونه وينصرفون ، حتى جاءه بعضُ الأمراءِ يقولون : إنا نخافُ أن يجريَ علينا في هذا البلدِ مثلُ ما جرى على أهلِ عكا ، ثم يأخذون بلادَ الإسلامِ بلداً . . . بلداً ، وإنا نرى أن المصلحةَ العامةَ تقضي أن نخرجَ إليهم إلى ظاهرِ البلدِ ، فإنْ هزمناهم أخذنا بقيةَ بلادِهم ، وإنْ تكنِ الأخرى سلم العسكرُ ومضى بحالِهِ ويأخذون القدسَ وتُحفَظُ بقيةُ بلادِ الإسلامِ بدونِ القدسِ مدةً طويلةً .

ثـم قـالوا لصـلاحِ الديـنِ : إن كنـتَ تريدُنـا أن نقيـمَ بالقدسِ تحتَ حصارِ الفرنجِ ، فكنْ أنتَ معنا ، أو بعضُ أهلِكَ حتى يكونَ الجيشُ تحت إمرتِكَ ، فإنّ الأكرادَ لا تطيعُ الـتركَ ، والترُكُ لا تطيعُ الأكرادَ .

فحزن لذلك حزنـاً شـديداً ، وخشـيَ أن يكـونَ ذلـك بدايةً لشقِ عصا المسلمين ، وتفريقِ كلمتِهـم بعـد اجتماعِهـا ، وشقَّ عليه ذلك مشقةً عظيمةً ، وبات ليلَهُ كلَّهُ مهمومـاً كئيبـاً مفكراً فيما قالوا ، ثـم انجلـى لـه الأمـرُ ، وألهمَهُ الله تعـالى أن يكونَ الملكُ الأمجدُ صاحبُ بعلبك [1] مقيماً معهم ، ونائباً عنـه في القـدسِ ، وكـان ذلـك يومَ الجمعـةِ فلمـا حضـر إلى صـلاةِ الجمعةِ ، وأذن المؤذنُ للظهرِ ، قام صلاحُ الدينِ رحمه الله تعالى فصلّى ركعتين ، وسجد سـجوداً طويـلاً ، وابتهـل فيـه إلى الله تعالى ابتهالاً عظيمـاً ، وتضرَّعَ إليه إن يكشفَ عنِ المسلمين مـا هم فيه من بلاءٍ عظيـمٍ ، وأنْ يزيـلَ عنهـم ضـائقتَهم ، ويفـرّجَ كربَهم ، هذا . . . وقد فتـح الله تعـالى عليـه في دعائِـهِ فبكـى وأبكى مَنْ كان معه في المسجدِ .

---

(١) بعلبك : مدينة قديمة من أعمال لبنان ، بينهـا وبـين دمشـق ثلاثـة أيام ، وقيل اثنا عشر فرسخاً .

اختلافُ الصليبيين

فلما كان اليومُ التالي وهو يومُ السبتِ أجاب ا لله تعالى دعاءَ صلاحِ الدينِ رحمه ا لله تعالى ، فأوقَعَ الخلافَ بين ملوكِ الفرنجِ ، فاختلفتْ كلمتُهم ، وتضاربَتْ آراؤهم ، وكادَ الشرُ يقعُ بينهم ، فقال ملكُ فرنسا : إنا إنما جئنا من البلادِ البعيدةِ ، وأنفقنا الأموالَ العديدةَ من أجلِ تخليصِ بيتِ المقدسِ من أيدي المسلمين ، وردِهِ إلينا ، وقد بقيَ بيننا وبينه مرحلةٌ ، فلماذا لا نمضي إليه . . . ؟ وما الفائدةُ من إقامتِنا هاهنا ... ؟

فقال ملكُ الإنجليزِ : إنَّ هذا البلدَ شقَّ علينا حصارُهُ ، فالمياهُ حوله قد عُدِمَتْ ، وإلى أن يأتينا الماءُ من المسافاتِ البعيدةِ يُعَطَّلُ الحصارُ ، وتنفَدُ المؤنُ ، ويهلكُ الجيشُ .

وتعمَّقَ الخلاف بين الفريقين ، وكلُ فريقٍ ينتصرُ لملكِهِ ويؤيدُهُ ، ثم رأوا أن يجعلوا أمرَهم إلى ثلاثمائةِ رجلٍ من عقلائِهِم ، ثم جعل هؤلاءِ الثلاثمائةِ الأمرَ إلى اثني عشر رجلاً منهم ، ثم اتفق هؤلاءِ أن يجعلوا الأمرَ إلى ثلاثةِ رجالٍ منهم ، ثم خرج هؤلاءِ الثلاثةُ وقد اتفقوا على الرحيلِ عنِ القدسِ

ومغادرتِها .

فانصاع الجميعُ لأمرِ هؤلاءِ الثلاثةِ ، ولم يستطيعوا مخالفتَهم ، فانسحبوا راجعين حتى نزلوا قريباً من الرملةِ .

فتبعهم صلاحُ الدينِ ، وبرز إليهم خارجَ القدسِ ، ثم مضى نحوهم خوفاً أن يتوجهوا إلى مصرَ ، وجعل يناوشُهم ، ويتحرشْ بهم ، فجرَتْ بينه وبينهم عدةُ اشتباكاتٍ أسفرَتْ جميعُها عن هزائمَ متكررةٍ ومتلاحقةٍ بالفرنجِ .

الصليبيون يطلبون الصلحَ

لما رأى الصليبيون ما حلَّ بهم من هزائم منكرةٍ أمام المسلمين الذين يغيرون عليهمُ المرةَ بعد الأخرى ، ويلحقون بهم خسائرَ جسيمةً في الأموالِ والرجالِ والعتادِ ، عجبوا من جرأتِهِم وقوةِ صبرِهِم ، وشدةِ جَلَدِهِم في القتالِ ، وتحمُّلِ أعبائِهِ وأثقالِهِ ، فجعلوا يراسلون صلاحَ الدينِ ، ويطلبون منه الصلحَ والأمانَ

ولقد تردَّدَتْ رسلُهم كثيراً بهذا الشأنِ ، فكانوا يعرضون الشروط التاليةَ لإنفاذِ الصلحِ ، وهي :

١- وضعُ الحربِ بينهم وبين صلاحِ الدينِ ثلاثَ سنين .

٢- أن يعيدَ لهم صلاحُ الدينِ عسقلانَ .

٣- أنْ يدعَ لهم كنيسةَ بيتِ المقدسِ ، وهي كنيسة القيامةِ .

٤- أن يمكّنَ صلاحُ الدينِ الفرنج من زيارتها وحجها

متى شاؤوا وبلا شيء .

فامتنع صلاحُ الدينِ من إعادةِ عسقلانَ ، وأطلق لهم كنيسةَ القيامةِ على أن يؤديَ كلُ زائرٍ مبلغاً محدداً من المالِ .

فامتنع الفرنجُ إلاّ أنْ تُعادَ إليهم عسقلانُ مع إعادةِ إعمارِها كما كانتْ فامتنع صلاحُ الدينِ ، وصمَّمَ على عدمِ الصلحِ إلاّ بشروطِهِ المتقدمةِ ، ثم انطلق بجيشِهِ إلى يافا [1] فحاصرها حصاراً شديداً ، ثم افتتحها عنوةً بحدِ السيفِ ، فجاء أهلُ البلدِ يُهرَعون إليه يطلبون الأمانَ فبينما هم كذلك إذ أشرفَتْ عليهم مراكبُ الفرنجِ على وجهِ البحرِ ، فانقلبوا على أنفسِهم ، ونكصوا على أعقابِهِم ، وتراجعوا عن طلبِ الأمانِ ، وانضموا إلى القواتِ المتقدمةِ ، وقاموا بهجومٍ قويٍ على المسلمين استطاعوا أن يستعيدوا يافا ، ويستعملوا البطشَ والوحشيةَ كعادتِهِم فقتلوا جميعَ مَنْ بقي فيها من المسلمين .

ولقد أخذَتْهُمُ الدهشةُ والاستغرابُ كيف فتحها صلاحُ الدينِ في يومين مع شدةِ مَنَعَتِها وقوةِ تحصينِها ، وهمُ

(١) يافا : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين عكا وقيسارية . انظر معجم البلدان .

الذين يحسبون أنها لا تُفتَحُ في عامين . . . ! !

وقال ملكُهُم : ما ظننتُ أنّ صلاحَ الدينِ مع شهامتِهِ وصرامتِهِ يغادِرُها ويتأخرُ عن منزلتِهِ فيها بمجردِ قدومي ، وأنا ومَنْ معي لم نخرجْ من البحرِ إلا عُزَّلاً من السلاحِ . . . ! !

ثم عاد الفرنجُ يطلبون الصلحَ ، ويشترطون أن تكونَ عسقلانُ داخلةً في صلحِهِم ، فرفض صلاحُ الدينِ ذلك ، وامتنع من تسليمها .

الصلحُ

واستمرَّتِ الإغاراتُ من الفريقين ، وجَرَتْ بينهما حروبٌ كثيرةٌ ، ومعاركُ عديدةٌ ، وكلُّها كانَتْ سجالاً ، فشعر الجنودُ من المسلمين والفرنجِ بالضجرِ والمللِ والسآمةِ من هذه الحروبِ الطويلةِ ، وأخذهمُ الشوقُ إلى بلادِهِم وأهلِهِم في الوقتِ الذي أُصيبَ فيه ملكُ إنكلترا بمرضٍ شديدٍ جعله يستغيثُ بصلاح الدينِ ، ويلجأُ إليه يطلبُ الثلجَ والفاكهةَ ، فاستجاب له صلاحُ الدينِ رغمَ غدرِهِ ونقضِهِ العهدَ ، و نكرانِهِ الجميلَ .

ذلك أن صلاحَ الدينِ رحمه الله تعالى لم يقابلِ الإساءةَ بمثلِها ، ولا الغدرَ بمثلِهِ ، إنما قابل الإساءةَ بالإحسان ، والخيانةَ بالصفحِ ، والغدرَ بالعفوِ ، وتلك سمةُ المسلمِ الحقِ الملتزمِ بآدابِ دينِهِ وأخلاقِهِ ، وتوجيهاتِهِ الساميةِ المتمثلةِ بقولِ الحقِ تبارك وتعالى : ﴿ خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعرفِ وأعرضْ عنِ الجاهلين ﴾ [1] ﴿ وجزاءُ سيئةٌ مثلُها فمن عفا وأصلَحَ فأجرُهُ

(١) ١٩٩ من سورة الأعراف .

على ا للهِ إنــه لا يحــبُ الظــالمين ﴾ [١] ﴿ وأن تعفـوا أقـربُ للتقوى ﴾ [٢] صدق ا لله العظيم .

وانطلاقاً مـن هــذه الآداب العظيمـةِ ، والتوجيهـاتِ الساميةِ أحسَنَ صلاحُ الدينِ لعـدوهِ ، وأكرَمَـهُ ، وقـدّمَ لـه مـا يريدُ .

فقابله الملـكُ بـالمثلِ ، ومَـال إلى رأيـهِ ، ورضـي بجميـعِ شروطِهِ ، وعَدَلَ عن طلبِ عسقلانَ .

وفي يومِ السابعَ عشرَ من شهرِ شعبانَ سنة ثمانٍ وثمـانين وخمسِمائةٍ . كُتِـبَ كتـابُ الصلـحِ بـين المســلمين والفرنــجِ ، وأُكِّدَتِ العهودُ والمواثيقُ بينهم على احترامِهـا والالـتزامِ بهـا ، ووقَّعَ عليها صلاحُ الدين وأمراءُ المسـلمين مـن جهـةٍ ، وملـكُ إنكلترا وملوكُ الفرنجِ من جهةٍ أخرى .

وفرح كلٌّ من الفريقين فرحاً شـديداً ، وأظهـر الجميـعُ سروراً عظيماً ، وأقيمـتِ الأفـراحُ ابتهاجـاً بالهدنـةِ والصلـحِ ، وأمِـنَ كـلٌّ فريـقٍ علـى نفسِـهِ مـن الآخـرِ ، ووضعَـتِ الحـربُ أوزارَها ثلاثين سنةً وستةَ أشهرٍ . والحمد لله رب العالمين .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الشورَى .

(٢) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

شروطُ الصلحِ

حمَلَتْ اتفاقيةُ الصلحِ بين المسلمين والفرنجِ الشروطَ التاليةَ :

١- أن تضعَ الحربُ أوزارَها ثلاثين سنةً وستةَ أشهرٍ .

٢- أن يقرَّهم صلاحُ الدينِ على ما بأيديهم من البلادِ الساحليةِ .

٣- أن يقرَّ الفرنجُ صلاحُ الدينِ على ما يقابلُها من البلادِ الجبليةِ .

٤- أن تكونَ ما بينهما من المعاملاتِ تُقْتَسم على المناصفةِ .

٥- أن يخرجَ مَنْ بقيَ من الفرنجِ من عسقلانَ ، وأن يُخرَبَ سوُرها ، فلا يقطُنُها أحدٌ من الفريقين .

قال ابنُ خلّكانَ : (ونادىَ المنادي بانتظامِ الصلحِ ، وأنَّ البلادَ الإسلاميةَ والنصرانيةَ واحدةٌ في الأمنِ والمسالمةِ ، فمَنْ شاء من كل طائفةٍ أنْ يتردّدَ إلى بلادِ الطائفةِ الأخرى تردّد من غيرِ خوفٍ ولا محذورٍ .

وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه مـن المسـرةِ مـالا يعلمُهُ إلاّ الله تبارك وتعالى ، وقد علـم الله تعـالى أنَّ الصلـحَ لم يكنْ عن مرضاة صلاح الدين وإيثارِهِ ، ولكنه رأىَ المصلحةَ في الصلحِ لسآمةِ العسكرِ ، ومظاهرتِهم بالمخالفةِ ، وكان مصلحةً في علمِ اللهِ تعالى ، فإنه اتفقَتْ وفاتُهُ بعـد الصلـحِ ، فلـوِ اتفـق ذلك في أثناءِ وقعاتِهِ كان الإسلامُ على خطرٍ .) [1] .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٧ ص ٢٠٠ .

مرضُ صلاحِ الدينِ

بعد التوقيعِ على معاهدةِ الصلحِ توجَّهَ صلاحُ الدينِ رحِمَهُ اللهُ تعالى إلى القدسِ ليتفقدَ أحوالَها ، ومنها ارتحل إلى دمشقَ . وكان يحبُها كثيراً ، ويؤثرُ الإقامةَ فيها ويفضلُها على سائرِ البلادِ .

فقدِمَ إليه الناسُ من كلِ مكانٍ وقد طال شوقُهم لرؤيتِهِ ، لأنه غاب عنهم أربعَ سنين قضاها في الحروبِ ، والفتوحاتِ ، والمعاركِ والانتصاراتِ ، ومقارعةِ العدوِ وحمايةِ الوطنِ .

ولقدِ اجتمع الناسُ حوله ، ولم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من الخاصِ والعامِ ، ولقدِ استقرَّ به المقامُ في دمشقَ ينشرُ العدلَ ، ويحكمُ بين الناسِ بالسويةِ ، ويعدلُ بينهم في القضيةِ ، ويظلُّهم بجناحِ رحمتِهِ وعدلِهِ ، ويرسلُ عليهم شآبيبَ إنعامِهِ وفضلِهِ ، ويكشفُ مظالمَ الرعايا ، وينصفُ المظلومين . ويحسنُ إلى الفقراءِ والمحتاجين ، ويمدُّ يد العونِ والمساعدةِ إلى الأراملِ واليتامَى والمساكينِ . فأحبهُ الناسُ حباً على حبِهِمُ القديمِ ،

ودعوا لـه بـالنصرِ والظفـرِ علـى العـدوِ ، وبالصحـةِ والعافيــةِ وطولِ العمرِ .

وأخذ يزورُ البلادَ ، ويتفقدُ أحوالَ العبــاد ، ويمشــي في شوارعِ دمشقَ ، ويـزورُ مـدارجَ الطفولـةِ ، ومواطـنَ الصبـا ، ويحنُّ إلى مراتعِ الشبابِ ، وكأنه يجدُ في ذلك راحةً بعد التعـبِ والنَصَبِ وسهرِ الليــلِ ، بـل وكأنـه بذلـك كـان يقـومُ بـوداعِ معارفِهِ وأصحابِهِ وأماكنِ راحتِهِ ونزهِهِ .

وفي ليلةِ السبتِ الخامسَ عشرَ من شهرِ صفر سنةَ تسعٍ وثمانين وخمسمِائةِ ، وجد في جسدِهِ كسلاً عظيمـاً ، وفي نفسِـهِ ألماً شديداً ألمَّ به ، وأزعجه ، وأقعَدَهُ عنِ الحركةِ .

وأخذ المرضُ يستفحلُ به ويتزايدُ يومـاً بعـد يـومٍ حتـى انتهىَ جسدُهُ إلى غايةٍ مـن الضعـفِ والهـزال ، ولقـد كـان مـن سوءِ حظِهِ ، بل من سوءِ حظِ الأمةِ كلهِا ، أنَّ طبيبَهُ الذي كان يشرفُ عليه دائماً ، وعرف مزاجَـهُ وطبيعـةَ جسـدِهِ في السـفرِ والحضرِ كان مسافراً ، ليَقضيَ الله أمراً كان مفعولاً

وفاةُ صلاحِ الدينِ

وفي اليومِ السادسِ من مرضِهِ اشتدَّ به الألمُ ، وقسا عليه فكانَتْ تصيبُهُ نوبةٌ من الإغماءِ والسقوطِ ، وكذلك في اليومِ السابعِ والثامنِ ، ولم يزلِ المرضُ يغلبُهُ حتى مَنَعَهُ الطعامَ والشرابَ ، فعلم به الناسُ ، وخافوا عليه الموتَ ، وخيَّمَ على دمشقَ حزنٌ عميقٌ ، وبكاه الناسُ في البيوتِ والشوارعِ ، وأغلِقَتِ الأسواقُ وغشيَتْهم سحابةٌ من الكآبةِ والأسى ، ويئس الأطباءُ من شفائِهِ .

وفي ليلةِ يومِ الأربعاءِ السابعَ والعشرين من صفر سنةَ تسعٍ وثمانين وخمسمِائةٍ اشتدَّ به الحالُ ، وغلبه المرض ، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحالِ : القاضي الفاضلُ ، وابنُ شدادٍ كاتبُ سيرتِهِ ، وصاحبُهُ في أسفارِهِ ، وقاضي البلدِ ابنُ الزكي ، فاستدعوا له الشيخَ أبا جعفرٍ إمام الكلاسةِ ليبيتَ عنده يقرأ له القرآنَ ويلقنُهُ الشهادةَ ، فذكر أنه كان يقرأُ قولهُ تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم

الغيبِ والشهادةِ ﴾ [1] .

فقال صلاحُ الدينِ : وهو كذلك صحيحٌ .

فلما أذَّنَ الصبحُ دخل عليه القاضي الفاضلُ وهو في آخرِ رمقٍ ، فلما قرأ الشيخُ : ﴿ حسبي الله لا إلهَ إلاّ هو عليه توكلتُ وهو ربُّ العرشِ العظيمِ ﴾ [2] .

تبسَّمَ ، وتهلَّلَ وجهُهُ بالبشرِ .

وبعد أداءِ صلاةِ الصبحِ فارَقَتِ الروحُ الطاهرةُ الجسدَ المثقلَ بالمرضِ والألمِ والتعبِ ، وصَعِدَتْ إلى بارِئِها راضيةً مرضيّةً ، لا يشوبُها شيءٌ من أدرانِ الدنيا ، لتفتحَ لها أبوابُ السماءِ ، وهي طاهرةٌ مطهرةٌ ، لترتفعَ إلى عِلّيينَ ، إلى رَوحٍ وريحانٍ وجنةِ نعيمٍ .

وداعاً صلاحَ الدينِ ، وداعاً بطلَ المسلمين ، وفاتحَ بيتِ المقدسِ ، وقاهرَ الفرنجِ الصليبيين . . . ! !

﴿ يا أيتُها النفسُ المطمئنةُ ارجعي إلى ربكِ راضيةً مرضيةً . فادخُلي في عبادي . وادخُلي جنتي ﴾ [3] .

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الحشر .

(٢) الآية ١٢٩ من سورة التوبة .

(٣) الآيات ٢٨ – ٣٠ من سورة الفجر .

﴿ إنَّ المتقين في جنـاتٍ ونَهَـر . في مقعـدِ صـدقٍ عنـد مليكٍ مقتدر ﴾ [١] صدق ا للهُ العظيم .

يقولُ القاضي بهاءُ الدينِ أبو المحاسنِ يوسفُ المعروفُ بابنِ شدادٍ ، صاحبُ سيرةِ صلاحِ الدينِ ، وكان ملازمـاً لـه في سفرِهِ وحضرِهِ ، في حربِهِ وسلمِهِ : (وكـان يـومُ موتِـهِ يومـاً لم يُصَبِ الإسلامُ والمسلمون بمثلِـهِ منـذ فُقِـدَ الخلفـاءُ الراشـدون رضي ا للهُ عنهم .

وغشيَ القلعةَ والملكَ والدنيا وحشةً لا يعلمُهـا إلاّ ا للهُ تعالى ، ويقولُ : وبا للهِ لقد كنتُ أسمعُ من الناسِ أنهـم يتمنـون فداءَ مَنْ يعزُّ عليهم بنفوسِهِم ، وكنتُ أتوهَّمُ أنَّ هـذا الحديثَ علـى ضـربٍ مـن التجوُّزِ والترخُّصِ ، إلى ذلـك اليـومِ فـإني علمـتُ مـن نفسـي ومـن غـيري أنـه لـو قُبِـلَ الفـداءُ لفُـديَ بالأنفسِ ... !!.

قال : وأُخـرِجَ بعـد صـلاةِ الظهـرِ رحِمَـهُ ا للهُ تعـالى في تابوتٍ مُسجّىَ بثوبِ فُوَطٍ فارتفعَتِ الأصواتُ عند مشاهدتِهِ ، وعظُمَ الضجيجُ ، وأخذالناسُ في البكاءِ والعويلِ ، وصَلّوا عليه أرسالاً .

(٢) الآيتان ٥٤ - ٥٥ من سورة القمر .

ثم أُعيدَ إلى الدارِ التي في البستانِ ، وهي التي كان متمرضاً بها ، ودُفِنَ في الصُّفَّـةِ الغربيـةِ منها، وكان نزولُهُ في حفرتِهِ قريباً من صلاةِ العصرِ .) [1]

ولستُ أدري . . . ؟ أنَّ هذا الموضعَ الذي حَّددَهُ ابنُ شدادَ والذي دُفِنَ فيه صلاحُ الدينِ رحمَهُ الله تعالى هو الذي نعرفُهُ اليومَ في المسجدِ الأموي بمدينةِ دمشقَ حرسَها الله تعالى ، وحماها وسائرَ بلادِ المسلمين من عاديةِ المعتدين ، أم هو موضعٌ آخرُ دُفِنَ فيه ثم نُقِلَ إلى موضِعِهِ اليوم في المسجدِ الأموي . . . ؟

وذكر ابنُ كثيرٍ : أنه دُفِنَ في دارِهِ بالقلعةِ المنصورةِ ، ثم شرع ابنُهُ في بناءِ تربةٍ له ومدرسةٍ للشافعيةِ بالقربِ من مسجدِ القدمِ لوصيتِهِ بذلك قديماً ، فلم يكمُلْ بناؤها .

ثم اشترى له الأفضلُ داراً شمالَيّ الكلاسةِ ، فجعلها تربةً ، هَطَلَتْ سحائبُ الرحمةِ عليها ، ووصَلَتْ ألطافُ الرأفةِ إليها ، وكان نقلُهُ إليها في يومِ عاشوراءَ سنةَ اثنتين وتسعين

---

(١) النوادرُ السلطانية والمحاسن اليوسفية ، المسماة بسيرة صلاح الدين الأيوبي . وانظر وفيات الأعيان .

وخمسِمِائةٍ ، وصلّى عليه قاضي القضاةِ محمدُ بنُ علـي القرايـبي ابنُ الزكي عن إذنِ الفـاضلِ ، ودخـل في لحـدِهِ ولـدُهُ الأفضـلُ فدفنَهُ بنفسِهِ ، وهو يومئذٍ سلطانُ الشامِ .

ويقال : إنهم دفنـوا معـه سيفَهُ الـذي كـان يحضُـرُ بـه الجهادَ ، وذلك عن أمرِ القاضي الفـاضلِ ، وتفـاءلوا أن يكـونَ معه يومَ القيامةِ يتوكـأ عليـه ، حتـى يدخـلَ الجنـةَ إنْ شـاء ا لله تعالى .

ثـم عُمِـلَ عـزاؤهُ بالجـامعِ الأمـوي ثلاثـةَ أيـامٍ يحضُــرُهُ الخاصُ والعامُ ، والرعيةُ والحكامُ . [1]

قال ابنُ خلِّكان : ثم أطال ابنُ شدادَ القولَ في ذلـك ، فحذفتُهُ خوفاً من الملالةِ ، وأنشد في آخرِ السيرةِ بيتَ أبي تمـامٍ الطائي وهو :

ثم انقضَتْ تلك السنونَ وأهلُها فكأنها وكأنهم أحلامُ

رحِمَهُ ا لله تعالى ، وقدّسَ روحَهُ ، فلقد كان من محاسنِ الدنيا وغرائبِها [2]

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١٣ ـ ص ٣

(٢) وفيات الأعيان جـ ٧ ـ ص ٢٠٣

ما قيل في رثائِهِ

من الشعرِ

توفيَ صلاحُ الدينِ رحِمَهُ الله تعالى وله من العمرِ سبعٌ وخمسون سنةً ، قضاها بالجهادِ في سبيلِ الله ونصرةِ الحقِ ، والدفاعِ عنِ الدينِ ، والتصدي لأطماعِ الغزاةِ الصليبين .

ولقد حزن الناسُ عليه حزناً شديداً ، وتألّموا لوفاتِهِ ألماً كثيراً ، وتسابَقَ الأدباءُ والشعراءُ في رثائِهِ وذكرِ مآثِرِهِ ، ومحاسِنِ أعمالِهِ ، كان من أجملِها ما ذكره العمادُ الكاتبُ في آخرِ كتابِهِ البرق السامي ، قال ابنُ كثيرٍ : وهي قصيدةٌ طويلةٌ بَلَغَتْ مائتي بيتٍ واثنين ، منها قولُهُ :

شَمْلُ الهوى والمُلْك عمَّ شتاتُهُ
والدهرُ ساءَ وأقلَعَتْ حسناتُهُ

أين الذي مُذْ لم يزلْ مخشيةً
مرجوَّةً رَهَباتُهُ وَهِباتُهُ

أين الذي كانَتْ له طاعاتُنا
مبذولةً ولربِهِ طاعاتُهُ

يا لله أين الناصرُ الملكُ الذي

لله خالصةً صَفَتْ نياتُهُ

أين الذي ما زال سلطاناً لنا

يُرجى نداهُ وتُتّقى سطواتُهُ

أين الذي شَرُفَ الزمانُ بفضلِهِ

وسَمَتْ على الفضلاءِ تشريفاتُهُ

أين الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأسِهِ

ذُلاًّ ومنها أدْرَكَـتْ ثـاراتُهُ

أغلالُ أعناقِ العدِا أسيافُـهُ

أطـواقُ أجيـادِ الـورى منّاتُـهُ

وقال في قصيدةٍ أخرى :

مَنْ لِلعُلَى مَنْ لِلذُرَى مَنْ لِلهدَى

يحميه مَـنْ للبأسِ مَـنْ للنائـِلِ

طلب البقاءَ لملكِهِ في آجـلٍ

إذ لم يثِقْ ببقاءِ مُلكٍ عاجِـلِ

بحرٌ أعـاد البرَّ بحـراً بِـرُّهُ

وبسيفِهِ فُتِحَتْ بلادُ الساحلِ

مَنْ كان أهلُ الحقِ في أيامِهِ

وبعزِهِ يُرْدون أهلَ الباطلِ

وفتوحُهُ والقدسُ من أبكارِها

أبقَتْ له فضلاً بغيرِ مساجلِ

ما كنتُ أستسقي لقبرِكَ وابلاً

ورأيتُ جودَكَ مخجلاً للوابلِ

فسقاكَ رضوانُ الإلهِ لأنني

لا أرتضي سُقيا الغمامِ الهاطلِ

هذا ما ذكره ابنُ كثيرٍ وغيرُهُ ، ولم أعثرْ على أكثرَ من ذلك .

و للهِ درُّه ، فلقد تكلّمَ فأحسَنَ ، ورثىَ فأجادَ ، ووصَفَ فأنصف ، ومَدَحَ فأفصَحَ وأبَّنَ فصدق . . . ! ! .

نعيُ صلاحِ الدينِ

كتب القاضي الفاضلُ إلى الملكِ الظاهرِ صاحبِ حلبَ ، ابنِ صلاحِ الدينِ رحمَهُ الله تعالى رسالةً ينعي إليه وفاة أبيه ، فقال :

﴿ لقد كان لكم في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ ﴾ (1)

﴿ إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ ﴾ (2)

كتبتُ إلى مولانا السلطانِ الملكِ الظاهرِ أحسَنَ اللهُ عزاءَهَ ، وَجَبرَ مصابَهُ ، وجعل فيه الخَلَفَ في الساعةِ المذكورةِ ، وقد زُلزِلَ المسلمون زلزالاً شديداً ، وقد حَفَرَتِ الدموعُ المحاجرَ ، وبَلَغَتِ القلوبُ الحناجرَ ، وقد ودَّعْتُ أباكَ ومخدومي وداعاً لا تلاقيَ بعدَهُ ، وقد قبلتُ وجهَهُ عني وعنكَ ، وأسلمتُهُ إلى اللهِ تعالَى مغلوبَ الحيلةِ ، ضعيفَ القوةِ ، راضياً عنِ اللهِ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله ، وبالبابِ من الجنودِ المجندةِ ، والأسلحةِ المُعَدَّةِ ما لم يدفعِ البلاءَ ، ولا

---

(1) الآية ٢١ من سورة الأحزاب .

(2) الآية ١ من سورة الحج .

مُلْكٌ يردُّ القضاءَ ، وتدمع العينُ ويخشعُ القلبُ ، ولا نقـولُ إلا ما يرضي الربَّ ، وإنا عليك يا يوسفُ لمحزونون .

وأمـا الوصايـا فمـا تحتـاجُ إليهـا ، والآراءُ فقـد شـغلني المصابُ عنها ، وأما لائحُ الأمرِ فإنه إنْ وَقَعَ اتفاقٌ فمـا عدمتـم إلاّ شخصَهُ الكريمَ ، وإنْ كان غيرُهُ فالمصائبُ المستقبلةُ أهونُهـا موتُهُ ، وهو الهولُ العظيمُ ، . . . والسلامُ .)

ذكرُ بعضِ مآثِرِهِ

قال غيرُ ابنِ شدادَ : (وزرتُ قبرَه في أول جمعةٍ من شهرِ رمضانَ سنةَ ثمانين وستمِائةٍ ، فقرأتُ على صندوقِ قبرِهِ بعد تاريخِ وفاتِهِ ما مثالُهُ : اللهم فارضَ عن تلك الروحِ وافتحْ لها أبوابَ الجنةِ فهي آخرُ ما كان يرجوه من الفتوحِ .

وقال : ولقد فكرتُ في نفسي في أمورِ هذا الرجلِ وقلتُ : إنه سعيدٌ في الدنيا والآخرةِ ، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعالَ المشهورةَ من الفتوحاتِ الكبيرةِ وغيرِها ، ورتّبَ هذه الأوقاف العظيمة ، وليس فيها شيءٌ منسوباً إليه في الظاهرِ ، فإن المدرسةَ [1] التي في القرافةِ ما يسميها الناسُ إلاّ بالشافعي ، والمجاورة للمشهدِ [2] لا يقولون إلاّ المشهدَ والخانقاه ، لا

(١) هي المدرسة المجاورة لمقام الإمام الشافعي رضي الله عنه بمدينةِ القاهرة المحروسة .

(٢) هو مشهد الحسين بن علي رضي الله عنهما بمدينة القاهرة ، وجعل عليها وقفاً كبيراً .

يقولون إلا خانقاه [1] سعيدِ السعداءِ ، والمدرسةُ الحنفيةُ ، لا يقولون أيضاً إلا مدرسةُ السيوفيةِ .

والتي بمصرَ لا يقولون إلاّ مدرسةُ زينِ التجار ، والتي بمصر مدرسةُ المالكيةِ . وهذه صدقةُ السرِ على الحقيقةِ .

والعَجَبُ أنَّ له بدمشقَ في جوارِ البيمارستان النوري مدرسةً يقال لها الصلاحيةُ ، فهي منسوبةٌ إليه وليس لها وقفٌ ، وله بها مدرسةٌ للمالكيةِ أيضاً ولا تعرف به ، وهذه النعمُ من ألطافِ اللهِ تعالى به .

وقال أيضاً : وكان مع هذه المملكةِ المتسعةِ والسلطنة العظيمة كثيرَ التواضعِ واللطفِ ، قريباً من الناسِ ، رحيمَ القلبِ ، كثيرَ الاحتمالِ والمداراةِ .

وكان يحبُ العلماءَ وأهلَ الخيرِ ، ويقربُهم ويحسنُ إليهم ، وكان يميلُ إلى الفضائلِ ، ويستحسنُ الأشعارَ الجيدةَ ، ويردِّدها في مجالسِهِ ، حتى قيل إنه كان كثيراً ما ينشدُ قولَ أبي منصورٍ محمدِ بنِ الحسينِ بنِ إسحاقَ الحِمَيري ، وهي هذه :

(١) هي دار سعيد السعداء خادم المصريين ، بمدينة القاهرة أيضاً ، ووقف عليها وقفا كبيراً أيضاً .

وزارني طيفُ مَنْ أهوى على حذر

من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا

فكِدْتُ أُوقِظُ مَنْ حولي به فرحاً

وكاد يهتكُ سترُ الحبِ بي شغفا

ثم انتهيتُ وأمالي تخيّلُ لي

نَيلَ المنى فاستحالتْ غبطتي أسفا

وقيل إنه كان أيضاً يعجبه قول أبي الحسين علي بنِ مفرجٍ المعروف بابنِ المنجمِ وهو في خضاب الشيب ، ولقد أحسن فيه :

وما خضب الناس البياضَ لقبحِه　　وأقبحُ منه حين يظهر ناصلُه

ولكنه مات الشباب فسوّدت　　على الرسم من حزن عليه منازلُهْ

ورويَ أن السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى كتب إلى بعضِ أصحابهِ بدمشق هذين البيتيْنِ ، وكان ذلكَ في أوّل ملكه :

أيها الغائبون عنا وإن كن　　تم لقلبي بذكركم جيرانا

إني مُذْ فقدتكم لأراكم　　بعيون الضمير عندي عيانا

ذكرُ شيءٍ من فضائلِهِ

كان رحِمَهُ اللهُ تعالى مع ما أوتَي من مُلْكٍ عظيمٍ ، ونفوذٍ كبيرٍ ، وسلطانٍ واسعٍ كثيرَ التواضعِ ، رحبَ الصدرِ ، رحيمَ القلبِ ، عاطفيَّ النزعةِ ، طاهرَ النفسِ ، شفافيَّ الروحِ ، زاهداً في الدنيا ، مقبلاً على الآخرةِ ، شديدَ الاقتداءِ برسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ الكرامِ .

لقد مات رحِمَهُ اللهُ تعالى ولم يترُكْ في خزانتِهِ سوى دينارٍ واحدٍ وستةٍ وثلاثين درهماً

ولم يترِكْ داراً ولا عقاراً ، ولا مزرعةً ولا بستاناً ، ولا شيئاً من حطامِ الدنيا وزخارفِها الفانية ، وذلك لجودِهِ وكرمِهِ وكثرةِ إنفاقِهِ على الفقراءِ والمحتاجين ، وإحسانِهِ إلى جنودِهِ وأصحابِهِ ، وحتى إلى أعدائِهِ .

ولقد تقدم معنا في أكثرَ من موضعٍ إحسانُهُ إلى عدوِهِ ملكِ إنكلترا حين مرض فذهب إليه ، وأشرف بنفسِهِ على علاجِهِ . . . ! !

فما أعظَمَ هذه النفسَ ، وما أطهَرها ، وما أنقاها ، وما

أكرمَها . . . ! ! .

إنها نفسٌ طاهرةٌ زكيةٌ ، نقيـةٌ تقيـةٌ ، جديـرةٌ بـالتعظيم والاحترامِ ليس من قومِها وأصحابها فحسب ، بل مـن عدوِهـا أيضاً .

ولْنصغ إلى هذه القصةِ التي تشـهدُ بشـفافيتِهِ وعاطفتِـهِ وإنسانيتِهِ ، وتجعلُ من يقفُ عليها ويتأملُها ينظرُ إليـه بإعجـابٍ وإكبارٍ ، كمَنْ ينظرُ إلى قديسٍ تفرُّ كـلُّ شـياطينِ الإغـراءِ أمـام زهدِهِ وعزوفِهِ وطهارةِ نفسِهِ ، وعظمةِ روحِهِ .

قصة الرضيعِ المسروقِ

كان بين جنودِ المسلمين لصوصٌ يدخلون خيامَ الفرنجِ فيسرقون ما فيها ، حتى إنهم كانوا يسرقون الرجالَ والنساءَ والأطفالَ ، فصدف أنّ بعضَهم سرق طفلاً رضيعاً من مهدِهِ ، وكان عمُرهُ ثلاثةَ أشهرٍ فوجَدَتْ عليه أمُهُ وجداً شديداً ، فرفَعَتْ أمرها إلى ملوكِ الفرنجِ فقالوا لها : اذهبي إلى سلطانِ المسلمين فإنه رحيمُ القلبِ فاشكي أمرَكِ إليه فهو الذي يستطيعُ أن يردَّهُ إليكِ .

فجاءتِ المرأةُ الفرنجيةُ إلى صلاحِ الدينِ رحِمَهُ الله تعالى ، فشكَتْ له أمرها ، وبكَتْ أمامه وانتحبَتْ ، فحزن عليها ، ورقَّ لها رقةً شديدةً حتى دمعتْ عيناه ، فأمر بعضَ الجندِ بإحضارِ الطفلِ ، فإذا هو قد بيعَ في السوقِ ، فأدَّى إلى مَنِ اشتراهُ ثمَنَهُ وعاد به إلى صلاحِ الدينِ الذي لم يزلْ واقفاً ينتظرُ حتى جيءَ بالطفلِ فأخذتْهُ أمهُ بلهفةٍ فضمّتْه إلى صدرِها بكلِ عاطفةٍ وحنانٍ ، ، ثم ألقمتْه ثديَها وهي تبكي من شدةِ فرحِها ، وفرطِ شوقِها ، وصلاحُ الدينِ ينظرُ إليها بعاطفةٍ إنسانيةٍ وهو يبكي لبكائِها ، ثم أكرَمَها وأحسَنَ إليها ، وأمر بحملِها إلى خيمتها على فرسٍ معزَّزة مكرمةً ، رحمهُ الله تعالى

وعفا عنه بمنِهِ وكرمِهِ . . . ! !

وكان ذلك سنةَ سبعٍ وثمانين وخمسِمائةٍ أثناء حصارِ مدينةِ عكا .

فعل صلاحُ الدينِ رحمه الله تعالى ذلك في الوقتِ الذي كان الفرنجُ الصليبيون قومُ تلك المرأةِ محاصرين مدينةَ عكا ، ويقومون بهجماتٍ وحشيةٍ وقاسيةٍ وظالمةٍ لاحتلالِها ، واستئصالِ أهلِها ، فلنعتبرْ ، ولْنتأمّلْ ولْنقارن بين أخلاقِ الفرنجِ وممارساتِهِم ، وبين أخلاقِ المسلمين وممارساتِهِم . . . ! !

ولقد كان من الطبيعي جداً أن يقابلَ المسلمون هجماتِ العدو بهجماتٍ مماثلةٍ ، وأن يردّوا عليهمُ العدوان بعدوانٍ مماثلٍ ، بل إن ردَّ المسلمين لا يُعتبَرُ عدواناً ، إنما هو ردٌّ للعدوانِ ، ودفاعٌ عنِ الأرضِ والعِرْضِ ، والشرفِ والدينِ وهذا حقٌ مشروعٌ لهم ، وواجبٌ مُحَتَّمٌ ومفروضٌ عليهم ، تقرُّه الشرائعُ السماويةُ ، والقوانينُ الوضعيةُ ، والأعرافُ الدولية ، ﴿ وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ اللهَ لا يحبُ المعتدين ﴾ [1] صدق الله العظيم .

---

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

القاضي الفاضلُ ينصحُ صلاحَ الدين

بعد توقيعِ معاهدةِ الصلحِ الآنفةِ الذكـر ، عـزم صـلاحُ الدينِ رحِمَـهُ ا للهُ تعـالىَ علـى الذهـابِ إلى مكـةَ المكرمـةِ لأداءِ فريضةِ الحجِ ، فكتب إلى أهلِ الحجازِ واليمـنِ ومصرَ والشـامِ ليعلموا بذلك ، ويتأهبوا له .

فكتـب إليـه القـاضي الفـاضلُ بنصحُـهُ بعـدمِ الذهـاب للحجِ هذا العام خوفاً على البلادِ من استغلالِ الفرنـجِ غيبتَـهُ ، أن يقوموا بهجومٍ مفاجئٍ فيستولوا علـى البـلادِ ، فيكـثرَ فيهـا الفساد ، ويعمَّ الظلمُ ، وينتشرَ الشر ، والناسُ قد أمِنوا الحربَ وأخطارَهـا ، وكرِهـوا نتائجَهـا وآثارَهـا ، وخَلَـدوا إلى الراحـةِ والسكونِ بعد حروبٍ طويلةٍ أفنَتْهم وأوهَنَتْ قواهم .

ولقد نصحَهُ قائلاً : إن النظر في أمرِ المسلمين خيرٌ لـكَ من الحجِ عامَكَ هذا ، والعدو مخيمٌ بعـدُ بالشـامِ ، وأنـتَ تعلـمُ أنهم يهادنون ليتقووا ويكثروا ، ثم يمكروا ويغدِروا .

فأصغىَ السلطانُ لرأيِهِ ، وشكر له نصحَـهُ ، وتَـرَكَ مـا

عَزَمَ عليه ، وأقامَ بالقدسِ شهرَ رمضانَ بتمامِهِ ، وأمضاهُ في الصلاةِ والصيامِ والقيامِ ، وتلاوةِ القرآنِ، وملوكُ الفرنجِ وزعماؤهم يفدون إليه ، ويجلسون معه فيستقبلُهم ، ويكرمُهم غايةَ الإكرامِ تأليفاً لقلوبهِم ، وتعريفاً بسماحةِ الإسلام وعدالتِهِ ، ولم يبقَ ملكٌ من ملوكِهِم ، ولا أمير من أمرائِهِم إلاّ جاء لزيارةِ كنيسةِ القيامةِ ، وحضورِ مائدةِ صلاحِ الدينِ رحمه الله تعالى .

ولم يلمسوا منه إلا إكراماً زائداً ، وبراً جزيلاً ، وصفحاً جميلاً . . . ! !

فرحم الله تلك الروحِ الطاهرةَ ، والنفسَ الطيبةَ الزكيةَ ، وقبل أعمالَها ، وشكر لها سعيَها ، وغَفَرَ لها ، وعفا عنها ، ورحِمَها رحمةً واسعةً ، وأسكنها فسيحَ جناتِهِ (مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصّدّيقِين والشهداءِ والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً . ذلك الفضلُ من الله وكفىَ با للهِ عليماً) . صدق الله العظيم .

ورحِمَ الله القاضيَ الفاضلَ ، ما أصدَقَهُ . . . ! ! وما أعظمَ إخلاصَه . . . ! ! وما أشدَّ غيرتَهُ وحرصَهُ على مصلحةِ

المسلمين . . . وما أجمَلَهُ من ناصحٍ أمينٍ . . . ! !

وصدق رسولُ الله ﷺ الذي قال : (ما بعث الله من نبيٍّ ، ولا استخلَفَ من خليفةٍ إلا كانت له بطانتان ، بطانةٌ تأمُرُهُ بالمعروفِ وتحضُّهُ عليه ، وبطانةٌ تأمرُهُ بالشرِ وتحضُّهُ عليه ، والمعصومُ من عَصَمَهُ الله) [1] ولا شكَّ أنَّ القاضي الفاضلَ رحمه الله تعالى من بطانة المعروفِ .

(١) رواه البخاري والنسائي .

تواضُعُهُ

يضافُ إلى صفاتِ صلاحِ الدينِ رحمَهُ الله تعالى المتقدمةِ :

أنه كان لا يحبُ الكبرَ ولا الغرورَ ، ولا الإسرافَ في المأكلِ والملبسِ ، فقد كان متواضعاً في ملبسِهِ ومركبِهِ ، معتدلاً في طعامِهِ وشرابِهِ ، بعيداً عن التبذيرِ والإسرافِ ، ليس عن شحٍّ وبخلٍ ، إنما توسطٌ واعتدالٌ ، تطبيقاً لقولِ اللهِ تعالى : ﴿ ولا تجعلْ يدَكَ مغلولةً إلى عُنقِكَ ولا تبسُطْها كلَّ البسطِ فتقعدَ ملوماً محسوراً ﴾ [1]

﴿ وآتِ ذا القربى حقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تبذِّرْ تبذيراً . إنَّ المبذرين كانوا إخوانَ الشياطينِ وكان الشيطانُ لربهِ كفوراً . ﴾ [2]

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يُسرِفوا ولم يقتِرُوا وكان بين

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان ٢٦ ـ ٢٧ من سورة الإسراء .

ذلك قواماً . ﴾[1] صدق الله العظيم .

فكان لا يرتدي ملابسَ الملوكِ والسلاطين ، تلك الملابسَ الزاهيةَ الفاخرةَ المزركشةَ ، بل كان يرتدي لباسَ القطنِ والكُتّانِ والصوفِ .

ولم يُرْوَ أنه ارتكب معصيةً ، أو تخطّىَ إلى مكروهٍ ، أو قام بما يَعيبُ ويشينُ لا سيما بعد أنْ أنعم الله تعالى عليه بالملكِ .

لقد كان همُّهُ الأولُ وشغلُهُ الشاغلُ نصرةَ الإسلامِ ، وجهادَ أعدائِهِ الفرنجِ اللئامِ ، وتطبيقَ العدلِ بين أفرادِ الدولةِ الإسلاميةِ مسلمين ومسيحيين على السواءِ .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

اهتمامُهُ بالعلمِ

كان إلى جانبِ ما ذُكرِ من أخلاقٍ عاليةٍ ، وآدابٍ سامية ، وعاداتٍ نبيلةٍ ، وسماتٍ فاضلةٍ ، كان يحبُ العلم حباً جماً ، ويهتمٌّ به اهتماماً زائداً ، ويحثٌّ عليه حثاً شديداً .

ذلك أنه حين تُوّجَ ملكاً على الديارِ المصريةِ لم يكُنْ بها شيءٌ من المدارسِ أو دورِ العلم ، فأقام فيها عدةَ مدارسَ ووقف لها وقوفاً كثيرةً ، ورتب لها المعلمين والمدرسين ، وجعل لهم أجوراً عاليةً ، وأنفقَ عليهم وعلى الطلابِ نفقاتٍ كثيرةً ، منها :

القرافةُ الصغرىَ ، وهي المدرسةُ المجاورةُ لمقامِ الإمامِ الشافعي رضي الله عنه بمدينةِ القاهرةِ المحروسةِ .

والمدرسةُ المجاورةُ لمشهدِ الإمامِ الحسينِ بنِ علي رضي الله عنهما ، بمدينةِ القاهرةِ أيضاً ، ووقف عليهما وقفاً كبيراً .

وجعل دارَ سعيدِ السعداءِ خادمِ المصريين خانقاه ، ووقف عليها وقفاً كبيراً أيضاً .

وجعل دارَ عباسِ بنِ السّلارِ مدرسةً للحنفيةِ ، وجعل

لها وقفاً جيداً .

وجعل المدرسةَ المعروفةَ بزينِ النجـارِ بمصـرَ وقفـاً علـى الشافعيةِ ، وجعل لها وقفاً جيداً أيضاً

وبنى بمدينةِ القاهرةِ داخــلَ القصـرِ مارسـتاناً [1] ، ولـه وقفٌ جيدٌ .

وله بالقدسِ مدرسةٌ أيضاً ، وبمصرَ مدرســةٌ للمالكيـةِ ، وخانقاه [2] ووقف لها وقفاً جيداً أيضاً .

وبعد الصلـحِ الـذي تمَّ بينَـهُ وبـين الفرنـجِ علـى وضـع الحربِ أوزارَها ثلاثين سنةً وستةَ أشهرٍ ذهب صلاحُ الديـنِ إلى القدسِ فاهتَمَّ بهــا ، وأصلَـحَ كثـيراً مـن أمورِهـا ، وزاد وقـفَ المدارسِ فيها ، وكذلك فعل بأســواقِها وحوانيتِهـا ، ومزارِعِهـا وبساتينِها .

ثم خرج منها قاصداً مدينةَ دمشق بعد أن استنابَ عـزَّ

---

(١) المارستان : بمثابة مستشفىً حكومي أو مستوصفٍ يعـالَجُ المرضـىَ فيه بالمجانِ .

(٢) الخانقاه : دارٌ داخل المدرسةِ ينام فيها الطلاب أو يوفَّرُ لهم الطعام واللباسُ .

الدينِ جورد بك ، وعلى قضائِها بهاءَ الدينِ بنَ يوسفَ بن رافعٍ التميميَّ الشافعيَّ ، فلما مرّ بطريقِهِ على نابلسَ نظر في أحوالِها وأحوالِ أهلِها ، وتفقّدَ المدارسَ فيها والمساجدَ ، وأكد أمورَها ، وزاد في وقفِها ، وأوصى القائمين عليها بالعملِ الصادقِ ، والإخلاصِ الدائبِ ، وحذّرَ من الفوضى والتسيُّبِ والإهمالِ .

ثم ارتحل عنها ، فكان يمرُّ في طريقِهِ بالبلدانِ والقلاعِ والحصونِ ، فينظرُ في أحوالِها ، ويكشفُ المظالمَ عن أهلِها .

وبينما هو في طريقِهِ إذ جاءَهُ بيموندُ صاحبُ إنطاكيةَ ، فأكرمَهُ ، وأحسَنَ إليه ، وأطلق له أموالاً جزيلةً ، وخلعاً كثيرةً .

وكان ممن صحِبَهُ في رحلتِهِ التفقّديةِ هذه ، العمادُ الكاتبُ الذي قال وهو يتحدثُ عن هذه الرحلةِ : وأصبحنا يومَ الأربعاءِ سادسَ عشرَ شوال بكرةً بجنةِ دمشقَ داخلين ، بسلامٍ آمنين ، وكانت غيبةُ السلطان عنها أربعَ سنين ، فأخرجَتْ دمشقُ أثقالَها ، وأبرَزَتْ نساءَها وأطفالَها ورجالَها ، وكان يومُ الزينةِ وخرج أكثرُ أهلِ المدينةِ ، واجتمع أولادُهُ

الكبارُ والصغارُ ، وقَدِمَ عليه رسلُ الملوكِ من سائِرِ الأمصارِ ، وأقام بقيةَ عامِهِ في اقتناصِ الصيدِ ، وحضورِ دارِ العدلِ ، والعملِ بالإحسانِ والفضلِ .

وكان رحمَهُ اللهُ تعالى عالماً باللغةِ والأدبِ ، مُلِمّاً بالتاريخِ وأيامِ العربِ ، حتى قيل إنه كان يحفظُ الحماسةَ بتمامِها .

وكان كثيرَ التعظيم لشرائعِ الدينِ ، حافظاً للقرآنِ ، دائمَ التلاوةِ ، ملتزماً أوامرَهُ ، مجتنباً نواهيَهُ ، كما كان رقيقَ القلبِ ، سريعَ البكاءِ عند سماعِ آياتِ القرآنِ الكريمِ وحديثِ النبي ﷺ .

وكان يحبُ سماعَ القرآنِ والحديثِ ، وحضورَ مجالسِ العلمِ .

وكان مواظباً على الصلواتِ في أوقاتِها مع الجماعةِ ، حتى قيل : إنه لم تفُتْهُ صلاةُ الجماعةِ قبل وفاتِهِ بدهرٍ طويلٍ لا في سفرٍ ولا في حَضَرٍ ، ولا في حربٍ ولا في سلمٍ ، حتى ولا في مرضٍ ، وكان في مرضِ وفاتِهِ يدخلُ عليه الإمامُ فيصلي به جماعةً ، فكان يتجشَّمُ القيامَ مع ضعفِهِ وشدةِ مرضِهِ .

وكان يجلسُ مـع العلمـاءِ ، وتُعقَـدُ بـين يديـه البحـوثُ والمناظراتُ ، فيشاركُ في ذلك مشاركةً فعّالةً وحسـنةً ، وكأنـه خُلِقَ ليكونَ عالماً ، وخُلِقَ لمجالسةِ أهلِ العلمِ والعلماءِ . . . ! !

وكان قد صَحِبَ ولَدَهُ الظـاهرَ بمدينـةِ حلـبَ المحروسـةِ شابٌ يقالُ له : الشهابُ السهروردي ، وكان يتعـاطى أعمـالَ السحر والكهانِة والشعوذِة ، فتعلَّقَ به ولدُ السـلطانِ ، وافتُتِـنَ بأعمالِهِ ، فَقرَّبَـهُ منـه وأحسـنَ إليـه ، وخـالَفَ فيـه أهـلَ العلـمِ وحملةَ الشرعِ ، فعلم به صلاحُ الدينِ وهـو بدمشـقَ ، فكتـبَ إليه أن يقتلَهُ لا محالةَ .

وحين لم يفعلْ جاء صلاحُ الدينِ إلى حلب فصلبـه أمـام الناسِ على خشبة وقيل : بل حَبَسَهُ في غرفةٍ صغـيرةٍ جـداً بـين جدارين حتـى مـات كَمَـداً . وكـان ذلـك سـنةَ ستٍ وثمـانين وخمسِمِائةٍ . وا للهُ أعلم .

نماذجُ من مدحِ الشعراءِ لصلاحِ الدينِ

في يومِ عيدِ الأضحى وبعد عودتِهِ من بيتِ المقدسِ ، اجتمع حولَهُ الشعراءُ والأدباءُ ، وأخذوا يتسابقون في مدحِهِ والثناءِ عليه ، فمن ذلك قولُ بعضِهِم :

وأبيها لو لا تغزُّل عينيْها
لما قلتُ في التغزُّلِ شعرا
ولكانَتْ مدائحُ الملكِ النا
صرِ وإلى ما فيه أعمِلُ فكرا
ملكٌ طبّقَ الممالكَ بالعدلِ
مثلما أوسَعَ البريةَ بــرّا
فيحلُّ الأعيادَ صوماً وفطراً
ويـلقى الهنا بـراً وبحــرا
يأمـرُ بالطاعـاتِ للهِ إنْ إض
حى مليكٌ على المناهي مُصِرّا
نلتَ ما تسَعى من الدينِ والدنيا
فتيهاً على الملـوكِ وفخـرا

قد جمعتَ المجدين أصلاً وفرعاً

وملكتَ الدارين دنيا وأخرى

ومن الشعراءِ الذين امتدحوه وأثْنَوا عليه ، أبو علي الحسنُ بنُ سعيدِ بنِ عبدِ اللهِ ، الشاتاني الملقبُ علمَ الدينِ ، الذي قال في قصيدةٍ طويلةٍ أولُها :

أرى النصرَ معقوداً برايتِكَ الصُّفْرا

فسِرْ وافتحِ الدنيا فأنتَ بها أحرى

ومنها قولُه :

يمينُك فيها اليمنُ واليسرُ في اليسرى

فبشرى لِمَنْ يرجو النَّدى بهما بشرى

وهي كما رويَ قصيدةٌ طويلةٌ لم أعثُرْ سوى على هذين البيتين .

ومنهمُ المهذبُ أبو حفصٍ عمرُ بنُ محمدِ بنِ علي بنِ أبي نصرٍ المعروفُ بابنِ الشحنةِ ، الذي قال يمتدحُ صلاحَ الدينِ بقصيدةٍ طويلةٍ قيل : إنها مائةٌ وثلاثةَ عشر بيتاً ، أولُها :

سلامُ مشوقٍ قد براه التشوقُ

على جيرةِ الحي الذين تفَرَّقوا

وفي القصيدةِ البيتان السائران ، وهما :

وإني امرؤٌ أحببتُكم لمكارمٍ

سمعتُ بها والأذنُ كالعينِ تعشقُ

وقالَتْ ليَ الآمالُ إن كنتَ لاحقاً

بأبناءِ أيوبٍ فأنتَ الموفَّقُ

وقال بعضُ أهلِ المشرقِ يمتدحُهُ :

الله أكبرُ جاء القوسَ باريها

ورامَ أسهمَ دينِ اللهِ راميها

فكم لمصرَ على الأمصارِ من شَرفٍ

باليوسُفَينِ فهل أرضٌ تدانِيها

فبابنِ يعقوبَ هَزّتْ جيدَها طرباً

وبابنِ أيوبَ هزّتْ عطفَهاتيها

قل للملوكِ تخلّى عن ممالِكِها

فقد أتَى آخذُ الدنيا ومعطِيها

فلما فرغ من إنشادِها أعطاه صلاحُ الدينِ رحمه الله تعالى ألفَ دينارٍ .

يريدُ بقولِهِ : (باليوسُفين) يوسفَ بنَ يعقوبَ عليه السلامُ ، ويوسفَ بنَ أيوبَ رحمهما الله تعالى ، وهو صلاحَ الدينِ .

وقال سبطُ بنُ التعاويذي يمتدحُ صلاحَ الدينِ :

إن كان دينك في الصّبابـةِ ديني
فقِفِ المطيَّ برملَتَي يبرينِ [(١)]

والْثُمْ ثرى لو شارفَتْ بي هَضْبَهُ
أيدي المطيِّ لثمتُهُ بجفوني

وانشُدْ فؤادي في الظباءِ معرِّضاً
فبغيرِ غزلانِ الصريمِ جنوني

ونشيدتي بين الخيامِ وإنما
غالطتُ عنها بالظِباءِ العينِ

لولا العِدا لم أُكنِ عن ألحاظِها
وقدودِها بجوازئ وغصونِ

لله ما اشتمَلَتْ عليه قبابُهم
يومَ النوى من لؤلؤٍ مكنونِ

من كلِ تائهةٍ على أترابِها
في الحُسْنِ غانيةٍ عنِ التحسينِ

(١) الصبابة : الشوق ، أو رقة الهوى ، والصَّبُّ : العاشق المشتاق . ويبرينُ : رملٌ لا تُدرَكُ أطرافُهُ ، وقال السكري : يبرينُ بأعلى بلاد بني سعد ، وقيل : يبرينُ من أصقاع البحرين ، وهناك رمل موصوف بالكثرة .

خَوْدٍ ترى قمرَ السماءِ إذا بَدَتْ
ما بين سالفةٍ لها وجبينِ [1]
غادينَ ما لَمَعَتْ بروقُ ثغورِهم
إلا استهلّتْ بالدموعِ شؤوني
إنْ تنكروا نَفَسَ الصَّبا فلأنها
مَرَّتْ بزفرةِ قلبيَ المحزونِ [2]
وإذا الركائبُ في الحبالِ تلفتت
فحنينُها لتلفّتي وحنيني
يا سلمَ إنْ ضاعَتْ عهودي عندكم
فأنا الذي استودَعْتُ غيرَ أمينِ
أوعدتُ مغبوناً فما أنا في الهوى
لكمُ بأولِ عاشقٍ مغبونِ
رفقاً فقد عَسَفَ الفراقُ بمطلقِ ال
عبراتِ في أسرِ الغرامِ رهينِ

(١) الخود : الفتاة الحسنة الخَلق الشابة ما لم تصرْ نَصَفاً ، وقيل : الجارية الناعمة .
السالف : أعلى العنق .
(٢) الصَّبا : هي الريح الشرقية التي تهب صوب باب الكعبة وسميت بذلك لأنها تصبو أي تميل .

ما لي ووصل الغانياتِ أرومُهُ
ولقد بخِلْنَ عليَّ بالماعونِ
وعلامَ أشكو والدماءُ مطاحَةٌ
بلحاظِهِنَّ إذا لوينَ ديوني
هيهاتَ ما للبيضِ في ودِ امرئٍ
أَرَبٌ وقد أربى على الخمسين
ومن البليةِ أنْ تكونَ مطالبي
جدوى بخيلٍ أو وفاءَ خؤوْنِ
ليت الضَّنينَ على المحبِ بوصلِهِ
لَقنَ السماحةَ من صلاح الدينِ
وأما القصيدةُ الثانيةُ فهي :
حتّامَ أرضى في هواكَ وتغضبُ
وإلى متى تجني عليَّ وتعتبُ
ما كان لي لولا ملالُكَ زلةٌ
لما مللتَ زعمتَ أني مذنبُ
خُذْ في أفانينِ الصدودِ فإنَّ لي
قلباً على العلاتِ لا يتقلّبُ
أتظنُّني أضمرتُ بعدكَ سلوةً
هيهاتَ عطفُكَ من سلوّي أقربُ

لي فيكَ نارُ جوانحٍ ما تنطفي

حُرَقاً ومـــاءُ مدامعٍ مـا تنضُبُ

أنسيتَ أياماً لنا ولياليَاً

للــهوِ فيها والبطالةِ ملعبُ

أيامَ لا الواشي يَعُدُّ ضلالةً

وَلَهي عليكَ ولا العذولُ يؤنبُ

قد كنتَ تنصفُني المودةَ راكباً

في الحبِ مِن أخطارِهِ ما أركبُ

واليوم أقنعُ أنْ يمرَّ بمضجعي

في النومِ طيفُ خيالِكَ المتأوّبُ

ما خلتُ أنَّ جديدَ أيامِ الصِبّا

يبلــى ولا ثــوبَ الشبيبةِ يُسلَبُ

حتى انجلى ليلُ الغوايةِ واهتدى

ساري الدُّجى وانجابَ ذاكَ الغيهبُ

وتنافَرَ البيضُ الحسانُ فأعرضَتْ

عني سعادُ وأنكـــرتني زينبُ

قالَتْ وريعَتْ من بياضِ مفارقي

ونحولِ جسمي:بان منكَ الأطيبُ

إنْ تنقمي سقمي فخصرُكِ ناحلٌ

أو تنكري شيبي فثغرُكِ أشنبُ [1]

يا طالباً بعد المشيبِ غضارةً

من عيشِهِ ذهب الزمَانُ المذهبُ

أترومُ بعد الأربعين تَعُدُّها

وصلَ الدُّمى هيهاتَ عَزّ المطلبُ

ومن السفاهِ وقد شآكَ طِلابُهُ

يَفَعاً تَطَلّـبُهُ وفَوْدُكَ أشيبُ [2]

لولا الهوى العذريُّ يا دارَ الهوى

ما هاج لي طـَرَباً وميضٌ خُلّبُ

كلاّ ولا استجديتُ أخلافَ الحبا

وندى صلاحِ الدينِ هامٍ صَيِّبُ

إتماماً لحجم الرسالة نذكرُ الأحداثَ التاليةَ :

---

(١) الظاهر أن الشنَب بياضُ الثغر ، وليس الأمرُ كذلك ، فإن الشنبَ في اللغة ليس البياضَ وإنما هو حدة الأسنان ، أو بردها وعذوبتها ، وهو دليل على الحداثة لأن الأسنان في أول طلوعها تكون حادة ، فإذا خرّتْ عليها السنون احتكت وذهبت حدتها .

(٢) الفود : طرف الرأس مما يلي الأذن ، والجمع أفواد .

معركةُ بربشتر (١)

وكما كانتِ الحروبُ قائمةً على أشُدّها بين المسلمين والفرنجِ في المشرقِ ، كانت كذلك قويةً حاميةً في المغربِ .

ففي سنةِ ستٍ وخمسين وأربعمائةٍ قَدِمَ جيشُ الفرنجِ الذين يقالُ لهم : النورمان ، فنزلوا حولها وأحاطوا بها ، وتقاعَسَ يوسفُ بنُ سليمانَ بن هودٍ عن حمايتِها ، ووكَّلَ أهلَها إلى أنفسِهِم ، فطمع بها النورمان ، وشدَّدوا حصارَهم عليها ، حتى نفد ما لدى السكانِ من طعامٍ ومؤنٍ ، فتنازعوا فيما بينهم في القوتِ لقلّتِه ، فعلم بهمُ العدوُّ فشدَّد الحصارَ ، وأحكَمِ القتالَ الذي دام أربعين يوماً ، ثم استطاع أن يدخُلَها في خمسةِ آلافٍ مقاتلٍ ، وقد لبسوا الدروعَ فلم يظهرْ منهم سوى العيونِ ، فدُهِشَ الناسُ وتساءلوا : كيف سقطتْ مدينتُهم ، وكيف استطاع العدو أن يدخلَها ، فتحصنوا داخلَ المدينةِ ، وقاوموا الغزاةَ مقاومةً عنيفةً ، وقاتلوهم قتالاً شديداً ، وتفانوا في الدفاعِ لردِهم وإخراجِهِم منها ، ولكن كان أمرُ الله قدراً مقدوراً ، فإنه من سوءِ حظِ المسلمين أن القناة التي كان

(١) بَرْبُشتَر : مدينة عظيمة في شرقي الأندلس .

الماءُ يجري فيها من النهرِ إلى المدينةِ تحت الأرضِ انهارَتْ وفَسَدَتْ ، وسقَطَتْ فيها صخرةٌ عظيمةٌ سَدَّتْ مجرى الماءِ ، فانقطع الماءُ عنِ المدينةِ ، ويئسَ الناسُ من الحياةِ ، وأشرفوا على الهلاكِ ، وخافوا على النساءِ والأطفالِ ، فألقَوا أسلحتَهم وتوقفوا عنِ القتالِ ولاذوا بالعدوِ يطلبون الأمان ، فأعطاهم الأمانَ ، فلما خرجوا نكث بهم وَغَدَرَ ، وسلَّطَ عليهمُ السيوفَ فقتل جميعَ المحاربين إلا رجلين ، هما القائدُ ابنُ الطويلِ ، والقاضي ابنُ عيسى في نفرٍ من وجوهِ المدينةِ .

ثم مال العدو يسلبُ ويسرقُ حتى أخذ ما لا يحصى من الأموالِ والأمتعةِ ، فبلغ ما استلبه نحواً من وقرِ خمسمائةِ جملٍ .

ولقد جاء في بعضِ الرواياتِ من نوادرِ ما جرى على هذه المدينةِ بعد فسادِ القناةِ وانقطاعِ المياهِ ، أنَّ المرأةَ كانت تقفُ على السورِ وتنادي مَنْ يعطيها جرعةَ ماءٍ لنفسِها أو لولدِها .

فيقولُ لها : أعطيني ما معكِ . . . ؟

فتعطيه ما معها من كسوةٍ وحلي وغيرِهِ .

وقد قيل : إنَّ النورمان قد قتلوا يومئذٍ وأسروا أكثرَ من مائةِ ألفِ نفسٍ فإنّا لله وإنا إليه راجعون .

صورٌ من وحشيةِ

النورمان

فعل النورمانُ بأهلِ بَرْبُشْتَرَ ما فعلوا مما يندى لـه جبـينُ التاريخِ ويذكُر جرائَمهم وآثامَهم وما اقترفَتْ أيديهم من ظلـمٍ وبطشٍ وقتلٍ ووحشيةٍ ، ثم نادى الملـكُ المسـلمين ، وأعطاهُمُ الأمانَ ، وأمرهـم أن يخرجـوا مـن المدينـةِ ، فتواثبـوا إلى البـابِ وازدحموا أمامه فمات منهم عددٌ كبيرٌ بسبب ذلك الازدحام .

ثـم نزلـوا مـن الأسـوارِ متعلِقـين بالحبـالِ هربـاً مـن الازدحامِ ، ومبادرةً إلى طلبِ الماءِ ، وكان قدْ وقـف في وسـطِ المدينةِ نحوٌ من سبعِمائةٍ من وجـوهِ المدينـةِ وحـاروا في أمرِهـم ، ووقفوا ينتظرون ما سيحلُّ بهم .

فلما خلَتِ المدينة مِمّنْ أُسِرَ وقُتِلَ وأُخرِجَ من الأبـوابِ والأسوارِ وهلك في الازدحامِ ، نودي في تلك البقيةِ بأن يبـادرَ كلٌ منهم إلى دارِهِ بأهلِهِ وله الأمانُ .

فلمـا حـلَّ النـاسُ في منـازِلِهم بـأهلِهمُ ، انقـضَّ عليهـمُ الفرنجُ فأسروهم واقتسموا منازلَهم ، وهـم ينظـرون لا حـولَ لهـم ولا قـوةَ وكـان عـددٌ مـن أهـلِ بربُشْـتر قـد هربـوا وفـروا

ولاذوا برؤوسِ الجبالِ ، وتحصنوا بمواضعَ منيعةٍ ، فأصابهمُ الجوعُ والعطشُ ، وكادوا يهلكون ، فناداهم ملكُ النورمانِ وأعطاهُمُ الأمانَ .

فبرزوا أمامه في صورِ الهلكى من الجوعِ والعطشِ ، فأطلَقَ سبيلَهم ، فبينما هم في الطريقِ إذ لقيَهم فرسانُ الفرنجِ فقتلوا معظَمَهم ، ولم ينجُ منهم إلا القَليلُ . . ومن جرائمِ النورمانِ وممارساتِهِمُ الوحشيةِ واللاإنسانيةِ أنهم حين استولَوا على برُبُشْتَر ، كانوا يقدمون على اغتصابِ البنتِ البكرِ بحضرةِ أبيها ، والثيبِ أمامَ زوجِها ، ويبقرون بطونَ الحواملِ ويذبحون الأطفالَ أمام آبائِهم وأمهاتِهم .

ولقد حَصَلَ من هذه الصورِ البشعةِ ، والحوادثِ المؤلمةِ ما لم يشهدِ المسلمون ولا غيرُهم ، ولم يحدُثْ مثلُهُ في دنيا الناسِ .

ولما عزم ملكُ النورمانِ على القفولِ إلى بلدِهِ اختارَ من بناتِ المسلمين الثيباتِ منهنَّ والأبكار ذواتِ الهيئةِ والجمالِ ، ومن صبيانِهِمُ الحسانِ ألوفاً أخذهم جميعاً إلى بلادِه .

عظةٌ واعتبارٌ

ذكر المقري في نفحِ الطيبِ وهو ينقلُ عنِ ابنِ حَيّانَ ، فقال :

(قال ابنُ حَيّانَ : وأختمُ هذه الأخبارَ الموقظةَ لقلوبِ أولي الألبابِ بنادرةٍ منها يكتفَى باعتبارِها عمّا سواها ، وهي أنَّ بعضَ تجارِ اليهودِ جاء بَرْبُشتَر بعد الحادثةِ ملتمساً فديةَ بناتِ بعضِ الوجوهِ مِمّنْ نجا من أهلِها حَصَلْنَ في سهمِ قوقس [1] من الرابطةِ فيها كان يعرفُهُ .

قال [2] : فهَديتَ إلى منزِلهِ فيها ، واستأذنتُ عليه ، فوجدتُهُ جالساً مكان ربِ [3] الدارِ مستوياً على فراشِهِ ، رافلاً في نفيس ثيابه و المجلس و السرير كما تركهما ربهما يوم محنته ، لم يتغير شيء من رياشهما و زينتهما ، و وصائفه مضمونات الشعور . قائمات على رأسه . ساعيات في خدمته

---

(١) القوقس : بالسين أو بالصاد : هو الكونت الكلمة تعني الحاكم أو القائد .

(٢) أي التاجر اليهودي .

(٣) رب الدار : صاحبها .

فرحَّبَ بي ، وسألني عن قصدي ، فعرّفتُهُ وجهَهُ ، وأشرْتُ إلى وفورِ ما أبذُلُهُ في بعضِ اللواتي على رأسِهِ ، وفيهِنَّ كانَتْ حاجتي .

فتبسَّمَ وقال بلسانِهِ : ما أسرَعَ ما طمعتَ فيمن عرضناهُ لكَ . . . !

أعرِضْ عَمَّنْ هنا وتعرَّضْ لَمنْ شئتَ مِمّنْ صيّرْتُهُ لِحصني من سبيي وأسرايَ ، أقارِبْكَ فيمنْ شئتَ منهنَّ .

فقلتُ له : أما الدخولُ إلى الحصنِ فلا رأيَ لي فيه ، وبقربِكَ أنتَ وفي كنفِكَ اطمأننتُ ، فسُمني [1] ببعضٍ مِنْ هنا ، فإني أصيرُ إلى رغْبتِكَ .

فقال : وما عندكَ . . . ؟

قلتُ : العينُ الكثيرُ الطيبِ ، والبزُّ الرفيعُ الغريبُ .

فقال : كأنك تشهيني ما ليس عندي . . . ! يا مجة ، ينادي بعضَ أولئك الوصائفِ - يريد يا بهجة - فغيره بعجمتِهِ ، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوقِ .

فقامَتْ إليه وأقبلَتْ ببدَرِ الدنانيرِ وأكياسِ الدراهمِ ،

---

(١) أي : من المساومة .

وأسـقاطِ الحُلي ، فكُشِـفَ وجُعِـلَ بـين يـدي العلـجِ [1] حتـى كـادَتْ تـواري شـخصَهُ ، ثـم قـال لها : أدنـي إلينـا مـن تلـك التخوتِ .

فأدْنَتْ له منه عـدةً مـن قطـعِ الوشـي والخـزِّ والديبـاجِ الفاخرِ مما حارَ له ناظري ، وبُهِتَ ، واسترذَلْتُ ما عندي .

ثم قال لي : لقد كثُرَ هذا عندي حتى مـا أُلَـذُّ بـه ، ثـم حَلَفَ بإلهِهِ أنه لو لم يكنْ عنده شيءٌ من هذا ثم بُذِلَ لـه بأجمعِهِ في ثمـنِ تلـك [2] ، مـا سَخَتْ بهـا يـدي ، فهـي ابنـةُ صـاحبِ المنزلِ ، وله حَسَبٌ في قومِهِ ، اصطفيتُها لمزيـدِ جمالِهـا حسـبما كان قومُها يصنعـون بنسائِنا نحـن أيـامَ دولتهـم ، وقـد ردّ لنـا الكرةَ عليهم ، فصرنا فيمـا تـراه ، وأزيـدكَ بـأنَّ تلـكَ الخـودةَ الناعمةَ ، وأشار إلى جاريةٍ أخرى قائمةٍ في ناحيةٍ أخـرى ، هـي مغنيةُ والدها التي كانَتْ تشدو له على نشواتِهِ ، إلى أن أيقظناه من نوماته ، يا فلانة – يناديهـا بلكنتـه – خـذي عـودك فغنّـي زائرَنا بشجوكِ ، قال : فأخذتِ العودَ ، وقَعَدَتْ تسوّيه ، وإني لأتأمَّلُ دمعَها يقطُرُ على خدِها ، فتسارقُ العلجَ مسحهُ .

(١) العلج : هو الرجل الضخم من العجم .

(٢) يريد بها الفتاة التي يتساومان عليها .

واندفَعَتْ تغني بشعرٍ ما فهمتُهُ أنا فضلاً عـن العلــج ، فصار من الغريبِ أنْ حــثَّ شـربَهُ هـو عليـه ، وأظهَـرَ الطـربَ منه .

فلمَّا يئســتُ مِمّـا عنـده قمـتُ منطلقـاً عنـه ، وعـدتُ لتجارتي ســواه ، واطَّلَعْـتُ لكـثرةِ مـا لـدى القـوم مـن السبي والمغنمِ على ما طال عجبي به فهذا فيه مقنَعٌ لمن تدبَّــرَهُ وتذكّـرٌ لِمَنْ تذكَّرَهُ . . . ! !)[1] .

﴿ إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهـو شـهيدٌ ﴾ [2] ﴿ إن في ذلـك لعـبرةً لأولي الأبصـارِ ﴾ [3] صدق الله العظيم .

---

(١) نفح الطيب ج ٤ ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ .

(٢) الآية ٣٧ من سورة ق .

(٣) الآية ١٣ من سورة آل عمران .

استرجاعُ بَرْبُشْتَر

لقد شعر ملوكُ الأندلسِ بتقصيرِهِم نحو القيـامِ بواجـب الدفاعِ عن بَرْبُشتَر ، وإنقاذِ أهلها من براثـنِ الفرنـجِ وبطشِـهِم ووحشيتِهِم .

وندموا على تفريطِهِـم بحقها وحـقِ أهلِهـا ، وتخـاذلِهِم أمام أطماعِ العدو .

لقـد أحسُّوا بوخـزِ الضمـيرِ ، وتـأنيبِ النفـسِ حـين أسلموا بربُشتَر إلى أعدائِها يعيثـون فيهـا الفسـادَ ، وينتهكـون الحرمـاتِ ، ويعتـدون علـى الأعـراضِ ، ويسـلبون الأمــوالَ ، ويقتلون النساء والعزلَ والأطفالَ ، ويهلكون الحـرثَ والنسـلَ وا لله لا يحب الفساد .

في الوقـت الـذي تخلَّـوا عــن نصرتِهــا ، وجلســوا في قصورِهِم ، واستسلموا لشهواتِهِم يمضون الليـالي الطويلـة بـين كؤوسِ الخمرِ ، وأرجلِ النساءِ ، ماضين في لهوهِمِ ، سادرين في ضلالِهِـم ، مـائلين إلى الدعـةِ والهـدوءِ ، مقبلـين علـى الراحـةِ والسكونِ ، إذا بهم يفاجؤون بسقوطِ بربشتر في أيدي الفرنـج النورمانِ الغزاةِ ، فأظهروا الندمَ والأسفَ على تفريطِهِـم بهـا ،

وتخاذلِهم عنِ الدفاعِ عنها .

ففي أواخر شهرِ جمادى الأولى سنةَ سبعٍ وخمسين وأربعمائةٍ صحا الماردُ العربيُّ من كبوتِهِ ، واستيقظ من سباتِهِ ، وتحرر من قيودِهِ ، وانطلق لردِّ العدوانِ ، ومعاقبةِ الظالمِ ، وإنصاف المظلومِ ، وإعادةِ الحقِ إلى نصابِهِ والثأرِ من الغزاةِ المعتدين ، وطردهِمِ من بلادِ المسلمينِ وإخراجِهِم منها إلى غيرِ رجعةٍ .

لقد نهض القائدُ العربيُّ أحمد المقتدرُ بنُ هودٍ ، والذي اعتبر نفسَهُ المسؤول عما حصل لبربُشْتَر ، والمفرطَ بها ، والمتقاعسَ عن حمايتها .

لقد جمع جموعَهُ وانطلق بهم ليمحوَ عارَ الهزيمةِ ، وليخمدَ نارَ الخطيئةِ ، ويوقظَ الهِمَمَ الفاترةَ ، ويخوضَ معركةَ الشرفِ والمجدِ والإباءِ ، ويثأرَ للأعراضِ التي انتهكَتْ ، والكرامةِ التي سُلِبَتْ ، والدماءِ التي أريقَتْ ، والنفوسِ التي قُتِلَتْ بعد أنْ أُذِلَّتْ وأُهينَتْ .

وانطلق القائدُ المسلمُ أحمدُ المقتدرُ يقودُ جموعَ المسلمين الذين تاقَتْ نفوسُهم لمجالدةِ الفرنج الغازين ، والانتقامِ منهم .

وما إن بلغوا بربُشْتَر حتى خرج إليهمُ النورمانُ

الغزاةُ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وثبت كلُ فريقٍ منهم أمام الآخر ، مصراً على التغلبِ عليه ، وكسرِ شوكتهِ .

وصبر المسلمون يومئذٍ صبراً جميلاً ، وثبتوا ثباتاً مشرفاً ، وجالدوا الأعداءَ جلاداً ارتابَ منه كلُ جبانٍ ، وأعزَّ الله أبناءَ دينهِ الشجعانَ ، وأمَدَّهم بالصبرِ والتأييدِ ، فقاتلوا قتالاً لم يُعهَدْ مثلُهُ ، وحميَ الوطيسُ بينهم إلى أن أنزل الله نصرَهُ على أوليائِهِ وجندِهِ ، وخَذَلَ أعداءَهُ وولَّوا الأدبارَ متوجهين إلى أبوابِ المدينةِ ليعتصموا بها هاربين ، وللنجاةِ طالبين .

فاقتحمها المسلمون عليهم ، وأنزلوا بهمُ السيف يقتلون فريقاً ، ويأسرون فريقاً إلا مَنْ فرَّ منهم من أرضِ المعركةِ ، ولم يدخلِ المدينةَ ، وأُجيلَ السيفُ في الكافرين ، واستؤصِلوا أجمعين ، إلاّ مَنِ استُرِقَّ من أصاغِرِهم ، وفُدِي من أكابرِهمِ .

هذا . . . وقد سبى المسلمون جميعَ مَنْ كان في المدينةِ من عيالِ الفرنجِ وأبنائِهِم ، وحرَّروا المدينةَ من أرجاسِهِم وشرورِهِم ، وملكوها بقدرةِ الخالقِ البارئِ ، وأعادوا إليها وجهَها المسلم المشرقَ ، ولم يفقدوا يومئذٍ سوى خمسين مقاتلاً أكرمَهُمُ الله تعالى بالشهادةِ ، وطهَّرَ بدمائِهِمُ الزكيةِ أرض

المعركةِ والمدينةِ .

في الوقتِ الذي قُتِل فيه من الفرنج النورمان ألفُ فارسٍ وخمسمائةِ راجل .

واستعاد المسلمون مدينةَ بربُشْتَر ، وغسلوا عارَ الهزيمةِ ، وثأروا لجميعِ القتلى ، وأذاقوا الفرنجَ العذابَ الأليمَ ، وطهّروا بربُشْتَر من رجسِ شركهم ، وجلَوها من صدأ إفكِهم ، وطردوهم منها شرَّ طردةٍ ، وألحقوا بهم هزيمةً منكرةً .

لقد صدقوا الله ، فَصَدَقَهُم ، واعتمدوا عليه ، فنصَرَهم ، واعترفوا بتقصيرِهم ، فعفا عنهم ، وتابوا من ذنوبهم ، فتاب عليهم ، وقبِلَ عملَهم ، ومحا حوبتَهم ، وغفر ذنوبهم ، وأيَّدَهم بنصرِهِ تصديقاً لقولِهِ تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تنصروا الله ينصرْكم ويثبتْ أقدامَكم . والذين كفروا فتعساً لهم وأضلَّ أعمالَهم . ﴾ (١)

﴿ ولقد سَبَقَتْ كلمتنا لعبادِنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإنَّ جندَنا لهم الغالبون . ﴾ (٢)

---

(١) الآيتان ٧ – ٨ من سورة محمد ﷺ .

(٢) الآيات ١٧١ – ١٧٣ من سورة الصافات .

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون . إنَّ في هذا لبلاغاً لقومٍ عابدين. ﴾ [١] صدق ا لله العظيم .

اللهمَّ اغفِرْ لنا ذنوبَنا ، وإسرافنا في أمرِنا ، وثبتْ أقدامنَا . وانصرنا على القومِ الكافرين .

اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، وأذهب غيظَ قلوبنا . وأجِرْنا من مُضِلاتِ الفتنِ ، فلقد قلتَ على لسانِ عبادِك الراسخين في العلمِ ، وقولُكَ الحقُ : ﴿ ربَنا لا تزِغْ قلوبنا بعد إذ هديتَنا وهَبْ لنا من لدنكَ رحمةً إنك أنتَ الوهابُ . رَبنا إنك جامعُ الناسِ ليومٍ لا ريبَ فيه إنَّ ا لله لا يخلفُ الميعاد . ﴾ صدق ا لله العظيم ، وصلى ا لله على سيدنا محمدٍ سيدِ الأولين والآخرين ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أجمعين ، والتابعين ومَن تبعهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ .

تمت الرسالةُ ، والحمدُ للهِ ربِ العالمين .

وإلى اللقاءِ مع معركةٍ إسلاميةٍ أخرى .

(١) الآيتان ١٠٥ - ١٠٦ من سورة الأنبياء .

الفهرس

معركة عكا	٣	الصلح	٥٨
تمهيد	٣	شروط الصلح	٦٠
حصار عكا	٦	مرض صلاح الدين	٦٢
الانتقام	٩	وفاة صلاح الدين	٦٤
مرض ملك الانكليز	١٤	ما قيل في رثائه من شعر	٦٩
بدء سقوط عكا	١٨	نعيُ صلاح الدين	٧٢
سقوط عكا	٢١	ذكر بعض مآثره	٧٤
على هامش سقوط عكا	٢٤	ذكر شيء من فضائله	٧٧
الغدر	٢٧	قصة الرضيع المحروق	٧٩
آداب القتال في الاسلام	٣١	القاضي الفاضل ينصح صلاح الدين	٨١
صور من آداب القتال في الاسلام	٣٤	تواضعه	٨٤
معركة عسقلان	٣٨	اهتمامه بالعلم	٨٦
خراب مدينة عسقلان	٤١	نماذج من مدح الشعراء لصلاح الدين	٩١
مقتل المركيز صاحب صور	٤٥	معركة بَرَبُشْتَر	٩٩
استيلاء الروم على قلعة الداروم وهدمها	٤٧	صور من وحشية النورمان	١٠١
المبايعة على الموت	٤٩	عظة واعتبار	١٠٣
اختلاف الصليبيين	٥٣	استرجاع بَرْبُشْتَر	١٠٧
الصليبيون يطلبون الصلح	٥٥	الفهرس	١١٢

معارك عربيّة خالدة
٢٠

معركة عين جالوت

إعداد
عبدالقادر الشيخ ابراهيم

دار القلم العربي



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

1421 هـ - 2001 م

عنوان الدار:

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي

ص.ب: 78 هاتف: 2213129 فاكس: 2212361 21 963+

البريد الالكتروني: E-mail : qalam_arabi@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

معركة عين جالوت [1]

تمهيد

(ظهور جنكيز خان)

بدأ خطر التتار أو المغول يهددُ العالَمَ الإسلاميَّ سنةَ تسعٍ وتسعين وخمسمائةٍ وفيها ظهر جنكيز خان وقوي أمره، واستحوذَ على الملكِ واستخلَصَهُ من الملكِ أزبك خان .

والمغولُ أقوامٌ من العنصرِ الأصفرِ، وموطنُهُم الأصليُّ منغوليا ومنها اكتسبوا هذا الاسمَ على ما يبدو، ومنهم ظهر جنكيز خان وكان زعيماً قوياً، شديدَ المراسِ في القتالِ، كما

[1] عين جالوت : بليدةٌ لطيفةٌ بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين ، كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنقذها منهم صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب في سنة ٥٧٩ . انظر معجم البلدان.

كان ذا عقلٍ سياسيٍّ وعسكريٍّ في إدارة أمورِ الدولةِ وتدبيرِ الحروب، والإشراف على الملكِ، كما كان يوصَفُ بالكرمِ والشجاعةِ والإحسانَ إلى رعايا دولتِهِ.

وتذكرُ بعضُ الَروايات التاريخيةِ أنه كان في ابتداءِ أمره من خاصةِ رجال الملكِ أزبكَ خان ومقربيه، وكان إذ ذاك شاباً حسناً، وكان اسمُهُ (تيموجين) فلما عظُمَ أمرُهُ ، وقويَ سلطانُهُ سمّى نفسَهُ (جنكيزخان) أي الملكُ الأعظمُ وحصل أنَّ رجالَ الملكِ حسدوه من مكانهِ، ووشَوا بهِ إلى الملكِ، وأوغروا صدرَه عليه، فأخرجَهُ من مجلسِهِ، وجرّده من رتبتِهِ ولم يقْتُلْهُ لأنه لم يجدْ له طريقاً من ذنبٍ يَحتجُّ به عليه، فاعتصَم جنكيزخان ببعضِ جبالِ طمغاجَ مَن أرض الصين ولجَأً إليه بعضُ المطرودين والخارجين على الملكِ ، وانضمَّ إليه جماعاتٌ كثيرةٌ من التتارِ، وتبعَهُ كثيرٌ من أصحاب أزبك خان، وهو يرحبُ بهم ويكرمُهم حتى كَثُرَتْ جنودُهُ، وقويَتْ شوكتُهُ، وظهرَ أمرُهُ، وانتشر خبرُهُ في البلاد.

ولقدْ حدث أنَ غضِبَ الملكُ أزبك خان على مملوكينَ من مماليكِهِ، فهربا منه ولجأا إلى جنكيزخان، فأكرمهما وأحْسَنَ إليهما، فأخبراهُ أن الملكَ يضمرُ له الشرَّ ويسعى إلى قتلِهِ، فأخذ جنكيزخان حذرَهُ، واحتاطَ لأمرِهِ، وجعلَ يغيرُ على أزبك خان

ويحاربُهُ حتى ظَفِرَ بهِ وقَتَلَهُ، وجَلَسَ مكانَهُ على عرشِ مملكـــةِ التتارِ، واستحوذَ على ملكِهِ ، وأصبحَ حاكماً مطلقاً، وآمـــراً وناهياً، وخضعَتْ لسلطانهِ بلادُ طمغاجَ مـــن أرضِ الصـــين، ومنغوليا وآسيا الصغرى بأجمعِها، حتى أصبح تحـــت إمرتِـــهِ ثمانُمائةِ ألف مقاتلٍ.

وكانت قبيلتُهُ التي هو منها يقالُ لها (قيان) مـــن أكـــبرِ القبائلِ وأشدّها خطراً، وأكثرها مراساً في القتـــالِ، ثم أقـــربُ القبائلِ إليه بعـــد قبيلتِـــهِ قبيلتـــان كبيرتـــان، وهمـــا (أزان) و(قنغوران).

وبهذه القبائلِ الكبيرة، وغيرِها أخذ جنكيزخان يعتـــدي على العبادِ، ويستولي على البلادِ، وينشـــرُ نفـــوذَهُ، ويبســـطُ سلطانَهُ حتى امتدَّ على مساحاتٍ شاسعةٍ من الأرضِ، وبذلـــك استطاعَ أن يوجِد أكبرَ امبراطوريةٍ وأوسعَها وُجِـــدَتْ حـــتى عهدِهِ.

بدء زحفِ المغول على العالم الإسلامي

كان العالَمُ الإسلاميُّ يسيطرُ عليـــه ضعـــفٌ سياســـيٌّ، وانقسامٌ مذهبيٌّ ، وتنافسٌ طاحنٌ بين مختلفِ الفرقاءِ.

وكان العالَمُ الإسلاميُّ، أو البلدانُ الإســـلاميةُ تزخـــرُ بخيراتٍ وفيرةٍ، وتنعمُ بثرواتٍ طائلةٍ، وتتمتعُ بموقـــعٍ جغـــرافي

استراتيجي وهام جداً، وتعيشُ حضـــارةً مزدهـــرةً، ومدنيـــةً متطورة ، كما أنّها مركزٌ هامٌ للتجارة، ومرتعٌ رحبٌ للنعمـــةِ، فأصبحت بهذا ولذاك دارَ إغراءٍ وموطَنَ أطماعٍ، وهدفاً دسمـــاً لجنكيزخانَ.

فكانت إيرانُ أقربَ البلدان الإسلاميةِ إليه، فأرسلَ عـددًا من رجالِه باسمِ التجارة ظاهراً، ولكنِ في الحقيقةِ للتجسّـــسِ والاستطلاعِ، فلما وصلَوا إلى خُوارزم[1] قتلهم حاكمُها مـــنَ جهةِ الملكِ خوارزم شاه، وأخذ جميعَ ما كان معهم من بضـائعَ أرسلها معهم جنكيزخان.

فلما بلغِ الخبرُ جنكيزخان غضب غضباً شديداً، وأرسَـلَ إلى ملكِ إيرانَ خوارزم شاه يسألهُ : هل وقع هذا الأمرُ عـــن علمِهِ ورضاه أم أنه لا يعلمُهُ ...؟

وقال له في كتاب أرسلَهُ إليه : من المعهود من الملـوك أنّ التجارَ لا يُقتلون لأنهم عمارةُ الأقاليم، وهمُ الذين يحملـونَ إلى الملوكِ ما فيه التحفُ والأشياءُ النفيسة ثم إنَ هؤلاء التجّارَ كانوا على دينكِ، فقتلهم نائبُك، فإن كان أمراً أمرتَ بـــه طلبنـــا بدمائهم، وإلاّ فأنت تنكرُه وتقتصُّ من نائبكَ.

فلما سمعَ خوارزم شاه ذلك من رسولِ جنكيزخـــان لم يكنْ له جواب سوى أن أمَرَ بضربِ عنقِهِ، وبذلـــك أســاء

---

[1] خوارزم، بضم الخاء : ليس اسماً للمدينة، إنما هو اسم للناحية بجملتها، وهي اليوم من بـلاد إيران.

التصرفَ، وعرَّضَ نفسَهُ لنقمةِ جنكيزخان، وبـــلادَهُ لخطـر ماحقٍ، وغزوٍ كاسحٍ لايعرفُ معنى الرحمةِ والإنسانيةِ.

فأرسلَ جنكيزخان يهددُ ويزمجـرُ ويقـولُ : تقتلـون أصحابي وتأخذون مالي منهم ... ! استعدوا للحـرب فـإني واصلٌ إليكم بجمعٍ لا قِبَلَ لكم به.

واتخذ ذلك ذريعةً لغزو البلدان الإسلاميةِ بدءاً بـإيران. فانطلق بأعداد هائلةٍ وجموعٍ غفيرة يطوي بهمُ الأرضَ طياً حتى التقى بخوارزمشاه فحاربه وهزمه، واحتلَ قسماً كبـيراً مـن شرقي البلاد الإسلاميةِ، فكان هذا الهجومُ بدايةً للغزوِ المغـولي وتغلغلِهِ في البلادِ الإسلاميةِ.

ولقد تابع خلفاؤهُ سياستَهُ في غزوِ العبادِ واحتلالِ البـلادِ معتمدين على البطشِ والقسوةِ والإرهابِ .

فهذا حفيدُهُ منكوقا آن الذي أرسلَ أخـاه هولاكـو لتحقيقِ حلمِ جدّهم جنكيزخان باحتلال البلادِ الواقعـةِ بـين جيحونَ وأقاصي بلادِ مصر.

وتبدو في وصيتِهِ لأخيه هولاكـو الشـخصية المغوليـةُ واضحةً كلَّ الوضوحِ منِ اعتزازٍ بجنكيزخان، وحـضٍ علـى التمسكِ بقوانينهِ في الكلياتِ والجزئياتِ إلى تحريضٍ على تحطيمِ كلِّ مَنْ يقفُ في طريقِهِ فيقولُ :

(أما مَنْ يعصيكَ فأغرِقْهُ في الذلةِ والمهانةِ مع نسائهِ وأبنائِهِ وأقاربِهِ وكل ما يتعلقُ به ...).

فإذا فرغتَ من هذه المهمةِ، فتوجَّهْ إلى العراق، وإذا بادَرَ خليفةُ بغدادَ بتقديمِ فروضِ الطاعةِ، فلاتتعرضْ له مطلقاً، أمّا إذا تكبّرَ وعصى، فألحِقْهُ بالآخرين من الهالكين)[1]

الغزو المغولي لبغداد

جاء الغزوُ المغوليُّ لبغدادَ عاصمةِ الخلافةِ العباسيةِ في ظروفٍ صعبةٍ وقاسيةٍ كانت فيها الخلافةُ تلفظُ أنفاسَها الأخيرةَ أو تكادُ، لقد كانتْ ضعيفةً، منهكةَ القوى، مهيضة الجناحِ، تمزق جسدها نزعاتٌ طائفيةٌ، وخلافاتٌ مذهبيةٌ ساعدَتْ على اتساعِ هوةِ الخلافِ بين المسلمين، ومهّدَتْ عمليةَ الغزوِ المغولي للبلدانِ الإسلاميةِ، بل وقرعِ أبوابِ بغدادَ وقتلِ الخليفةِ العباسي المستعصم بالله.

استغلَّ هولاكوخان سلطانُ المغولِ ضعفَ الخليفةِ وتآمُرَ بعضِ وزرائهِ عليه كابنِ العلقمي وخيانتَهُ له، وتواطُؤَهُ مع هولاكو واتفاقَهُ السريَّ معه لقلبِ نظامِ الحكمِ، وقتلِ الخليفةِ،

[1] وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي.

وقيامِ نظامٍ مذهبي يضمنُ السيادةَ لابنِ العلقمي، ويجعلُهُ حاكماً مطلقاً في بغدادَ يتصرف في أمورِها كمـــا يتصــرفُ الخليفــةُ الشرعيُّ.

لقد عملَ ابنُ العلقمي على الغدر بالخليفة المستنصر بالله، والخيانةِ لدينِهِ، فباعَ نفسهُ وضميرَهُ لهولاكو، وعمدَ إلى تخفيضِ عددِ الجنودِ المدافعين عن بغدادَ من مائةِ ألفِ مقاتلٍ إلى عشــرةِ آلافٍ، وسرّح تسعين ألفاً تمهيداً لغزوٍ كاسحٍ ظــالمٍ لايُبقــي ولايذرُ، ومن الطبيعي أنّ القلة لا تستطيعُ الصمودَ أمام الكثرةِ، وقديماً قالوا : الكثرةُ تغلبُ الشجاعةَ .

وفي اليوم الثاني عشر من المحرمِ ســنةَ ســتٍ وخمســين وستمائةٍ زحف هولاكو بجيشٍ كثيفٍ قوامُهُ مائتا ألفِ مقــاتلٍ لغزوِ بغدادَ واحتلالِها، فوجَّهَ الخليفةُ العباسيُّ وزيرَهُ مؤيدَ الدينِ محمّدَ بنَ العلقمي للمفاوضةِ، وهو لا يعلمُ أنّ وزيرَه قد خانَــهُ، ومهَّدَ لقتْلِهِ بمؤامرةٍ سريةٍ بينه وبين هولاكوخان.

فأشار الوزيرُ ابنُ العلقمي على الخليفــةِ أن يبعــثَ إلى هولاكو ببعضِ الهدايا وأشار بعضُهُم ممنْ على شـــاكلةِ ابــنِ العلقمي أن تكونَ الهدايا يسيرةً، يريدون بذلك إثــارةَ حنــقِ

هولاكو وإشعالَ نارِ غضبِهِ وثورتِهِ، فاستجابَ لهـمُ الخليفـةُ وأرسل شيئاً من الهدايا استصغرها هولاكو واحتقرها، واعتبرها هدايا رخيصةً تحطُّ من قدرهِ ولا تليقُ بعظمتِهِ، فانطلق بجيشِـهِ حتى بلغَ بغدادَ وأحاط بها من ناحيتيـها الشـرقية والغربيـةِ، وجيوش الخليفةِ في غايةِ القلةِ والضعفِ لاحولَ لها ولا قوةَ، ولا يبلغُ عددُ أفرادها أكثر من عشرةِ آلافِ مقاتلٍ، وما عسـى أن تفعلَ هذه القلةُ أمام تلك الأعدادَ الضخمةِ والهائلة ...؟ وأنّـى للعينِ أن تقابلَ المخرزَ ... ؟ ولهذا لم يستطعْ أحـدٌ أن يقـابلَ المغولَ سوى عميلهِمُ ابنِ العلقمي الذي خـرج مـن بغـدادَ فاجتمعَ بالسلطان هولاكو، ثم عادَ إليها ليشيرُ علـى الخليفـةِ بالخروجِ إليه والمثول بين يديه لمفاوضتهِ على الصلحِ بإعطائـهِ نصفَ خراجِ العراقِ.

لم يجدِ الخليفةُ من حلٍّ سوى الاستجابةِ لرأي وزيـرهِ، فخرج في سبعمائةِ راكبٍ من العلماءِ والفقهاء وأعيان الدولـةِ والأمراء، فلم يكادوا يقتربون من منـزلِ هولاكو حتى حُجبوا عنِ الخليفةِ، ومنعوا من الدخولِ على هولاكو إلاّ سبعة عشـرَ نفراً انتهى بهمُ الخليفةُ، وأنزل الباقون عن مراكبِهم وقتلوا عـن آخرِهم، ثم أحضِرَ الخليفةُ بين يدي هولاكو، فسألَهُ عن أشـياءَ كثيرةٍ، فاضطرب كلامُ الخليفةِ من هولِ ما رأى من الإهانـةِ

والمذلّةِ والجبروت، ومن شدة ما لقيَ من سخريةٍ وضيق وحرجٍ لم يلقَها أحدٌ شهِدَ أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسولُ الله.

ثم عادَ الخَليفةُ إلى بغدادَ وفي صحبتِهِ مستشارُهُ نصيرُ الدينِ الطوسيُّ، ووزيرُهُ ابنُ العلقمي وغيرُهما، فأخذ شيئاً كثيراً من الذهبِ والحُلي والجواهرِ النفيسةِ وعاد بها إلى مجلسِ هولاكو.

وكان الطوسيُّ وابنُ العلقمي وغيرُهما من المنافقين والمتآمرين على الإسلامِ وعلى الخليفةِ قد أشاروا على هولاكو بعدمِ الصلحِ، وقال له ابنُ العلقمي : متى وقع الصلحُ على المناصَفةِ[1] لَن يستمرَّ هذا سوى عامٍ أو عامين، ثم يعودُ الأمرُ إلى ما كان عليه قبل ذلك.

ومضى هو وغيرُهُ من المنافقين يزخرفون له القولَ، ويزينون له قتلَ الخليفةِ، ويحسنون له الزحفَ على بغدادَ، حتى أوغروا صدرَهُ على الخليفةِ وأثاروا حنْقَهُ على المسلمين.

مقتلُ الخليفة وسقوطُ بغداد[2]

قيلَ إن هولاكو تَهَيَّبَ في أولِ الأمرِ قتلَ خليفةِ المسلمين، فهوّنَ عليه ذلك ابنُ العلقمي ليصلَ إلى مأربَهُ ، ويحقق أحلامَهُ

---

[1] المناصفة : أن يكون نصفُ خراج العراق لهولاكو، والنصف الآخر للخليفةِ.
[2] بغداد : عاصمة العراق، ومن قبلُ كانت دار الخلافة العباسية، وكان يقال لها جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام ومجمع الرافدين.

بمصانعةِ هولاكو وإرضائِهِ ليكونَ من خاصتِهِ ومعاونيه ، فلم يزل به حتى أمَرَ بقتلِهِ، فباؤوا جميعاً بإثمِهِ وإثمِ جميع من قتِلَ معه من المسلمين.

ثم تقدم هولاكو فدخل بجنودِه بغدادَ وأطلق أيديَهم في البلدِ، فعاثوا فيها الفسادَ، واستباحوها أربعين يوماً فقتلوا جميعَ مَنْ وصلوا إليه من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ، والكهولِ والعجزة، وهرب كثيرٌ من أهلِ بغدادَ من بطشِهِم فدخلوا في الآبار وأماكنِ الحشوشِ[1] ومواضعِ القمامةِ، وكمنوا فيها أياماً لا يجرؤون على الظهورِ خوفاً من القتلِ، وكان كثيرٌ منهم يجتمعون بالخاناتِ ويغلقونَ عليهمُ الأبوابَ وجنودُ التتارِ يتبعونهم فيفتحونها عليهم إمَّا بكسرها أو إحراقِها بالنارِ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعلى الأماكنِ وإلى أسطحةِ المنازلِ فيقتلونهم عليها، حتى لقد رويَ أن الدماءَ كانت تجري في الميازيبِ والأزقةِ.

وكذلك كانوا يلوذون إلى المساجد والربطِ ليحتموا بها فيدخلونها عليهم دون أن يرعوا لها حرمةً، أو يحترموا لها قدسيةً، فلم ينجُ منهم أحدٌ سوى أهلِ الذمةِ من اليهودِ

[1] الحشوش جمع حش وهو موضع قضاء حاجة الإنسان، وقيل : الحش : البستان لأن الناس كانوا يقضون حوائجهم فيه قبل اتخاذ المراحيض.

والنصارى، ومَنِ التجأ إليهم أو إلى دارِ الوزيرِ ابنِ العلقمي، ومن دفع إليهم أموالاً كثيرةً من التجارِ وأهلِ اليسارِ فسلموا وسلمَتْ أموالُهُم.

وغدَتْ بغدادُ كأنها خرابٌ ليس فيها إلاّ القليلُ من الناسِ وهم في خوفٍ وجوعٍ وقلقٍ وذلةٍ بعد أن كانَتْ آمَنَ المدنِ وآنسَها، وحاضرةَ الدنيا، وجنةَ الأرضِ، حتى لقد بالغ بعضُهم في وصفها فقال : بغدادُ حاضرةُ الدنيا وما عداها باديةٌ.

بغدادُ يادارَ الملوكِ ومُجتنَى — صنوفِ المنى يا مستقرَّ المنابرِ
وياجنةَ الدنيا ويا مجتنى الغنى — ومنبسطَ الآمالِ عند المتاجرِ

هذا ... وقدِ اختُلِفَ في عددِ مَنْ قُتِلَ ببغدادَ في هذا الهجومِ الظالم، فقيل : ثمانُمائةِ ألفٍ، وقيل : ألفُ ألفٍ وثمانُمائةِ ألفٍ، وقيل : ألفا ألفِ نفسٍ واللهُ أعلمُ، ولقدِ استمرّ السيفُ يعملُ برقابِ المسلمينَ أربعين يوماً، وأضحَتِ القتلى في الطرقات كالتلالِ، وقد سقط عليهم المطرُ فتغيرتْ صورهُم، وأنتنَتْ رائحتُهم، وتلوّثَ الجوّ، وفسَدَ الهواءُ، وانتقلتِ العدوى، وعمّ الوباءُ، فمات عددٌ كبيرٌ من الناسِ بسببِ تغيُّرِ

الجوِ وفسادِ الريحِ، فاجتمع على الناسِ مصائبُ كثيرةٌ : الفقرُ والغلاءُ والوباءُ والفناءُ والقتلُ والطعنُ والطاعونُ، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وبعد مضي أربعين يوماً رُفِعَ السيفُ، ونوديَ بالأمان فخرج الناسُ من مخابئِهم كأنهُمُ الموتى إذا نُبشوا من قبورِهم، وقد أنكرَ بعضُهم بعضاً، فلم يعرفِ الوالدُ ولدَهُ ولا الأخُ أخاه، ثم هبّتْ عليهم ريحُ الوباءِ الشديدِ فماتوا جميعاً، ولحقوا بمَنْ سبقهم من القتلى، وكان ذلك في أواخر شهرِ المحرم وأوائل شهر صفر.

ولقد نظم الشعراءُ قصائدَ رقيقةً ذاتَ شجونٍ يبثون فيها آلامهم وأحزانَهم لما حلّ ببغدادَ وأهلِها، منها ما ذكره تقيُّ الدينِ بنُ أبي اليسرِ :

لسائلِ الدمعِ عن بغدادَ أخبارُ	فما وقوفُكَ والأحبابُ قد ساروا
يازائرين إلى الزوراءِ لا تفِدوا	فما بذاكَ الحمى والدارِ ديّارُ[1]
تاجُ الخلافةِ والربعُ الذي شَرُفَتْ	به المعالمُ قد عفّاهُ إقفارُ
أضحى لعصف البلى في ربعهِ أثرٌ	وللدموعِ على الآثارِ آثارُ

[1] الزوراء : مدينة ببغداد في الجانب الشرقي، وقيل في الجانب الغربي ، سميت بذلك لازورار في قبلتها، والزوراء، دار بناها النعمان بن المنذر ، وقيل غير ذلك.

يانارَ قلبيَ من نارٍ لحربِ وغـــىً	شَبّتْ عليه ووافى الربعَ إعصـــارُ
علا الصليبُ على أعلى منابرهـــا	وقام بالأمرِ مَـــنْ يحويـــهُ زُنّـــارُ
وكم حريمٍ سَبَتْهُ التركُ غاصبـــةً	وكان من دونِ ذاك السترِ أســتارُ
وكم بدورٍ على البدريةِ انخسَـفَتْ	ولم يَعُـــدْ لبـــدورٍ منـــه إدبـــارُ
وكم ذخائرَ أضحَتْ وهي شـائعةٌ	من النهابِ وقد حازتْـــهُ كفـــارُ
وكم حدودٍ أُقيمتْ من ســيوفهمُ	على الرقابِ وحُطّتْ فيـــه أوزارُ
ناديتُ والسّبيُ مهتوكٌ تجرُّ بهـــم	إلى السفاحِ من الأعـــداءِ دعّـــارُ

نهاية ابنِ العلقمي

لقد خانَ ابنُ العلقمي أمانتَهُ، ومرق من دينِهِ، وتآمر علـى خليفةِ المسلمين، وباع نفسَهُ للشيطان، وهو يحلُمُ بمنصبٍ رفيعٍ وحظوةٍ كبيرة، وأوقعَ نفسَهُ في ورطةٍ عظيمةٍ، وجرَّ على أمتـهِ بلاءً شديداً جعله يحملُ أوزاراً كبيرةً تثقلُ كاهلَـهُ، وتعرضُـهُ للمذلةِ والهوانِ في الدنيا، والعقابِ الأليمِ في الآخرةِ ولن يجدَ لـه ولياً ولا نصيراً.

لقد باع نفسَه للشيطان، بل لقد كان عونـاً للشـيطان، وكان الشيطانُ للإنسان خذولاً، يقودُهُ إلى مواقفِ الخـذلانَ، ويخذلُهُ عند الجدِّ، ويتخلّى عنه في مواقفِ الهولِ والكربِ.

لقد جرّ على الإسلامِ والمسلمين ويلات شديدةً، وجَلَبَ إلى البلادِ بليّةً لم يُصَبِ الإسلامُ والمسلمون بمثلها ليصلَ إلى مأربِهِ، وينالَ أمنيتَهُ، ولكنَّ اللهَ خذَلَهُ، وردَّ سهمَهُ إلى صدرِه، وجعلَ كيدَهُ في نحرِهِ، وأذلّهُ بعدَ العزةِ، وأحطّهُ بعد المنعةِ، ﴿واللهُ غالبٌ على أمرهِ ولكنَّ أكثر الناسِ لا يعلمون ﴾[1].

لقدِ اشترط ابنُ العلقمي على التتارِ أن يجعلوا الخلافةَ لرجلٍ هو عنه راضٍ، فلم يوافقوه على ذلك بل سخروا منه واستهجنوا رأيَهُ وقالوا له : أنّى لكَ أن تشترطَ علينا ...!! ومتى كان الناسُ يشترطون على التتارِ ...؟ بل ومتى كان التتارُ يأذنون لأحدٍ أن يشترطَ عليهم ...؟

ثم حملوه وألقوه بين الخدمِ، وأسندوا إليه أشقّ الأعمالِ وأقذرَها ، ولم يتمَّ له ما أراد، وذاق من التتارِ الذلَّ والهوانَ، وهو الذي قدّم إليهم خدمةً في يومٍ واحدٍ لا يحلمون بتحقيقها في عشراتِ السنين، فكافؤوه على ذلك بأقذرِ عملٍ وأقبحِ مهنةٍ بعد أن كانَ عزيزاً في قومِهِ يتمتعُ بأعلى رتبةٍ وأعظمِ منزلةٍ فآثرَ الضلالَ على الهدى، والغيَّ على الرشادِ، والكفرَ على

[1] الآية ٢١ من سورة يوسف .

الإيمان، وباء بإثمهِ وإثم جميع مَنْ قُتِلَ من المسلمين، فلم تطُـــلْ أيامُهُ، و لم يمهلْهُ اللهُ بل أخذه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، لقد قصَمَـهُ اللهُ تعالى في مستهلِّ شهرِ جمادى الآخرةِ من نفسِ السنةِ التي أعـلن فيها التتارَ على دخولِ بغدادَ، ومات غماً وكمداً لا رحمَـهُ اللهُ ولا عفا عنه، وذلك جزاءُ الخائنين . ﴿ذلك بمـا قدّمـتْ أيديكم وأنَّ اللهَ ليس بظلاّم للعبيد﴾.[1]

قال بعضُهم يرثي بغدادَ وأهلَها :

بادَتْ وأهلوها معاً فبيوتُهم	ببقاءِ مولانا الوزيرِ خرابُ

وقال آخرُ :

ياعصبةَ الإسلامِ نوحي واندبي	حزناً على ما تمَّ للمســـتعصم
دسْتُ الوزارةِ كان قبل زمانهِ	لابنِ الفراتِ فصار لابنِ العلقمي

رويَ أنّ امرأةً رأتْهُ وهو في الذلِّ والهوانِ فـــاقتربَتْ منـــه وقالت له : يا ابنَ العلقمـــي، هكـــذا كـــان بنـــو العبـــاسِ يعاملونكَ...؟

فوقعَتْ كلمتُها في قلبه، وأثرتْ في نفسهِ تأثيراً كبيراً جعلَتْهُ ينقطعُ في دارهِ إلى أنِ مات كمداً وضيقاً بعدَ أن ذاق الخزي في الحياة الدنيا، وَلَعذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبقى، وقد رأى بعينيـــه،

---
(1) الآية ٥١ من سورة الأنفال.

وسمع بأذنيهِ منِ الإهانةِ من التتار الذين مالأهم، وسمحَ لنفسهِ أن يكونَ عوناً لهم على بلادهِ وأمتِهِ وأبناءِ جنسِهِ ودينهِ ...!!.

التعريف بالمستعصمِ أميرِ المؤمنين

هو المستعصمُ بالله أبو أحمدَ بنُ المستنصرِ بالله آخرُ خلفاءِ بني العباسِ بالعراقِ الذين ينتهي نسبُهم إلى سيدِنا العباسِ بنِ عبدِ المطلبِ عمّ النبي ﷺ .

ولدَ سنةَ تسعٍ وستمائةٍ، وبويعَ له بالخلافةِ في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائةٍ.

وقُتِلَ في يومِ الأربعاءِ الرابعَ عشرَ من شهرِ صفرَ سنةَ ستٍ وخمسين وستمائةٍ.

كان جميلَ الصورةِ، حَسَنَ السريرةِ، صحيحَ العقيدةِ مقتدياً بأبيه المستنصرِ في العدلِ والإحسان، وإكرامِ العلماءِ، وكان متمسكاً بالسنةِ كأبيهِ وجدّهِ، ولكنه لم يكنْ مثلهما في التيقظ والحزمِ وعلوّ الهمةِ.

وكان للمستعصم أخٌ يُعرفُ بالخفاجي يزيدُ عليه في الشجاعةِ والشهامةِ، وكان يقولُ : إنْ ملّكني الله الأمرَ لأعبرَنّ

بالجيوشِ نهرَ جيحونَ[1]، وأنتزعُ البلادَ من التتارِ وأستأصلُهم، فلما توفي المستنصرُ لم يرَ أربابُ الدولةِ وأصحابُ الحلِّ والعقدِ تقليدَ الخفاجي الأمرَ، وخافوا شجاعتَهُ وحزمَهُ وسطوتَهُ، وآثروا المستعصمَ للينهِ وانقياده، وكأنهم حاكوا خيوطَ المؤامرةِ بليلٍ ليكونَ لهمُ الأمرُ الذي انتهى بتدبيرِهم إلى المستعصمِ، ثم ركنَ المستعصمُ إلى وزيرِهِ مؤيدِ الدينِ بنِ العلقمي الذي تآمر على المستعصم، ولعبَ به كيف أرادَ، فأهلك الحرثَ والنسلَ، وباعَ نفسَهُ للتتارِ كما علمنا، فكان إذا جاءهُ خبرٌ من التتارِ كتَمَهُ عنِ الخليفةِ، وطالَعهم بأخبارِ الخليفةِ إلى أن حصل ما حصلَ ليقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً.

العالمُ الإسلاميُّ إبانَ الغزو المغولي

كانَ العالَمُ الإسلاميُّ كما تقدم يسيطرُ عليه ضعفٌ سياسيٌّ، واختلافٌ مذهبيٌّ، ونزاعٌ طائفيٌّ مزّقَ جسدَ الأمةِ وجعلها دويلاتٍ صغيرةً عاجزةً عن الوقوفِ في وجهِ تقدمِ الزحفِ المغولي الهمجي، ففي الشامِ نرى أنَ الحكمَ الأيوبيَّ قد

[1] نهر جيحون : هو بالفارسية هرون، وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان فنسبه الناس إليها، وقالوا : جيحون على عادتهم في قلب الألفاظ وسمي بذلك لاجتياحه الأرضين.

ضعفَ وكاد يتقلّصُ، وفي مصر انتهى تماماً بعد موتِ الصالحِ نجمِ الدينِ أيوبَ ونهوضِ أم خليلٍ التي يقال لها شجرةُ الدر بأعباء الحكمِ، وما تبعَ ذلك من قيامِ حكمِ المماليكِ فيها.

وفي المغرب كان الحكمُ للعبيديين الذين كانوا يزعمون أنهم أبناءُ فاطمةَ الزهراءِ ابنةِ رسولِ الله ﷺ .

وأما العراقُ وإيرانُ فقد حُسِمَ أمرُهما وسقطا في أيدي التتار الهمجيين كما تقدم.

فلم يبقَ في البلدان الإسلامية من يقاومهم سوى المماليكِ بمصرَ والأيوبيين الذين ضعُفَ أمرُهم بالشامِ، فكانوا أعجزَ من أن يواجهوا التتارَ منفردين،فوجدوا أنفسَهم مضطرين إلى الاستنجادِ بالمماليكِ بمصرَ لصدّ الغزوِ الجارفِ القادمِ إليهم من الشرقِ ، وكان يحكمُ مصرَ آنئذٍ السلطانُ المظفرُ قطز .

بدء حكم المماليكِ لمصرَ

أولاً– المعزُّ عزُّ الدين أيبك :

يعتبرُ عزُّ الدين أيبكُ التركمانيُّ المؤسِّسَ الأولَ لحكمِ المماليكِ بمصرَ، وقد قام حكمُهم على أنقاضِ حكم الأسرةِ

الأيوبيةِ بعد وفاة السلطان الملكِ الصالحِ أيوبَ الذي كان يقاتلُ الفرنجَ ليخرجَهُم من دمياط[1]، ثمَّ حدثَ أن مرض ثم تُـوفيَ في ليلةِ النصف من شعبانَ، فأخفتْ جاريتُهُ أمُّ خليـــلِ المدعـــوةَ شجرةَ الدرِّ موتَهُ، وأظهرَتْ للناسِ أنه مريضٌ مدنفٌ لا يستطيعُ أن يقابلَ أحداً، ولكنها أعلمَتْ أعيانَ الأمراءِ الذين أرسلوا إلى ابنهِ الملكِ المعظمِ توران شاه، وكان بحصنِ كيفا[2] ، فلما قـدِمَ عليهم توّجوه ملكاً وبايعوه أجمعين، ولم يكد يتسلّمُ مقـــاليدَ الحكم حتى جهز جيشَهُ ومضى لقتالِ الفرنجِ، فقاتلهم وانتصـر عليهم وأخرجَهم من دمياطَ بعد أن قتل منهم ثلاثـــين ألفـــاً، وقيل: مائةَ ألفٍ، ثم لم يلبث أن قُتِلَ على أيدي جندِ أبيهِ وذلك بعد شهرين من تتويجه ملكاً.

ولعلها كانت مؤامرةً نُسجَتْ خيوطُها بليلٍ بزعامةِ عـــزِّ الدين أيبك، وشجرةِ الدرِّ، وكان أيبكُ أولَ مَنْ باشَرَ ضـــربَ الملكِ توران شاه، ضربه في يدِه بالسيفِ فقطع بعضَ أصابعِـــهِ فهرب إلى قصرٍ من خشب فحاصروه فيه، ثم أحرقوه عليـــه، فخرج مستجيراً برسولِ الخليفةِ فلم يجيروه، فهرب منـــهم إلى

(1) دمياط : مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل. انظر معجـــم البلدان.
(2) حصن كيفا : ويقال كيبا ، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر.

النيلِ فدخلهُ ثم خرجَ منه، فقتلوه بطريقةٍ فظيعةٍ وبشعةٍ، وجعلوا يركلونه بأرجلِهم وهو يستغيثُ فلا يغاثُ حتى مات رحمه الله تعالى.

كلُّ ذلك من تخطيطِ شجرةِ الدُّرِّ التي تسلَّمَتْ بعد ذلك مقاليدَ الحكمِ، ثم تزوجَتْ عزَّ الدين أيبكَ، و لم يلبثِ المماليكُ أنْ أقاموا لهم صبياً من بني أيوبَ، وهو الملكُ الأشرفُ مظفرُ الدينِ موسى بنُ الناصرِ يوسفَ بنِ المسعودِ إقسيسِ بن الكاملِ، ثم استقلَّ عزُّ الدين أيبكُ بالملكِ مع زوجتهِ شجرةِ الدُّرِّ، كلُّ هذه الأحداث الكثيرة والمتسارعة حَدَثَتْ في سنةِ ثمانٍ وأربعين وستمائةٍ.

ثم ظهر في زمن حكمِ أيبكَ فارسٌ شريرٌ يقال له (أقطاي) وكان قد قدم من صعيدِ مصرَ ومعه جماعةٌ من المفسدين وقطاعِ الطرقِ يعرفون باسم البحريةِ، فعاثوا في الأرضِ الفسادَ، وزرعوا فيها الخوفَ والرعبَ، وقتلوا الناسَ، وأسروا بعضَهم، ونهبوا الأموالَ، و لم يكترثوا بعزِّ الدين أيبكَ، و لم يلتفتوا لأمرِه، ولا لزوجتِهِ شجرةِ الدُّرِّ، الأمرُ الذي أزعَجَ أيبكَ وأقضَّ مضجَعَهُ، وأفقدَهُ هيبَتَهُ، وكاد يقضي على ملكِهِ، فاستشار زوجته بقتلِ أقطاي، فوافقتْ معه على ذلك فعمل له مكيدةً

استطاع أن يقتلَهُ فيها، وأراح اللهُ المواطنين المصريين من شــرِّه وفساده، وحافظَ أيبكُ على هيبتِهِ، ووطَّدَ أركانَ دولتِهِ.

وتذكر بعض المراجعِ أنه كان كريماً شجاعاً عادلاً، محبــاً لدينهِ، متمسكاً بالسنةِ معيناً للفقراء، كثيرَ الإنفاق في سبيل الله، وقد أوقف مدرسةً بمصرَ يقالُ لها (المدرسة المعزّيَة) وأوقــف أعمالاً أخرى كثيرةً تشهدُ بجودهِ وكرمِهِ وسدادهِ.

ثانياً ـ شجرة الدُّرِّ :

يروى أن عزَّ الدينِ أيبكَ عزم على الزواجِ من ابنةِ صاحبِ الموصلِ بدرِ الدينِ لؤلؤ، فلما علمَتْ زوجتُهُ شجرةُ الدُّرِّ بذلك أكَلَتْها الغيرةُ وأرادَتْ أن تقتلَهُ، فأمَرَتْ جواريَها أنْ يمسكْنَهُ لهـا فما زالتْ تضربُهُ بقباقيبها والجواري ممسكاتٌ به حتى مــات وهو كذلك، فسمع مماليكُهُ صوتَ جلبةٍ في القصــرِ فــأقبلوا نحوها يتقدمُهُم مملوكُهُ الأكبرُ سيفُ الدينِ قطُز، فلما رأوا أيبكَ بين أيديهِنَّ ميتاً، عمدوا إلى شجرةِ الدُّرِّ فقتلوها وألقَوها بــين القمامةِ والقاذوراتِ مكشوفةَ الجسدِ غير مســتورةِ العــورة، وذلك بعد الحجابِ المنيعِ، والمقامِ الرفيعِ، وبعد أن ضُربَ اسمُها على الدراهِمِ والدنانيرِ، وذكرها الخطباء باسمها على المنــابرِ،

ودعَوا لها في المساجدِ والمدارسِ أصبحَتْ ذليلةً مهانةً ملقاةً بين القاذورات، فلا تُعرف بعد ذلك بعينها ولا رسمِها، فسبحانَ مَنْ له العزةُ والخلودُ والبقاءُ ... !!

﴿كل شيءٍ هالكٌ إلاّ وجهَهُ له الحكمُ وإليه ترجعون﴾[1]

﴿قل اللهمَّ مالكَ الملكِ تؤتي الملك مَنْ تشاءُ وتنزعُ الملكَ مِمَّنْ تشاءُ وتُعِزُّ من تشاءُ وتُذِلُ مَنْ تشاءُ بيدِكَ الخيرُ إنّك على كلِ شيءٍ قديرٌ﴾[2] .

هذا ... وقد بقيت شجرةُ الدرّ ملقاةً في مكانها ثلاثةَ أيامٍ، ثم نقلَتْ إلى تربةٍ لها بالقربِ من قبرِ السيدةِ نفيسةَ في مدينة القاهرة.

وكانت تتمتعُ بشخصيةٍ قويةٍ، وعقلٍ راجحٍ، وذكاء حاد، ونفوذ كبيرٍ، فلما علمت أنه قد أُحيطَ بها أتلَفَتْ كثيراً مما لديها من الجواهرِ النفيسةِ، واللآلئ الثمينةِ، لا لها ولا لغيرِها، حطمَتْ جميعَ ذلك بالهاون.

وكانت شجرةُ الدرّ تركيةً، وكانت جاريةً للملكِ الصالحِ نجمِ الدينِ أيوبَ، وكان ولدُها خليلٌ منه، من أحسنِ الفتيانِ

[1] الآية ٨٨ من سورة القصص .
[2] الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

شكلاً، وأجملِهم صورةً، وكانت تحبُّهُ حباً جماً، لا تفارقُـــهُ في سفرٍ ولا حضرٍ، وقد مات وهو صغيرٌ، فحزنَتْ عليـــه حزنـــاً شديداً، وبه كانت تكنّى.

وبعد مقتلِ عزِّ الدينِ أيبكَ قام في الملكِ بعدهُ ولدُهُ نـــورُ الدينِ عليٌّ، ولُقِّبَ بالملكِ المنصورِ، وكان مستشارُهُ الشـخصيُّ ومديرُ مملكتِهِ مملوكَ أبيهِ سيفَ الدينِ قطز، ثم عزله قطز واستقلَّ بالملكِ بعده نحواً من سنةٍ تقريباً، ولقِّبَ بالملكِ المظفرِ.

ثالثاً ـ الملكُ المظفرُ قُطُز :

هو سيفُ الدينِ قُطُز بنُ عبدِ اللهِ التركيُّ، أخصُّ مماليكِ عزِّ الدين أيبكَ، وأحدُ مماليكِ الملكِ الصالحِ أيوبَ بنِ الكاملِ.

كان بطلاً شجاعاً شهماً مقداماً كثيرَ الخيرِ، ناصحاً للناسِ، محباً للإسلامِ وأهلِهِ، وكان الناسُ يحبونهُ كثيراً ويدعونَ له علـى المنابرِ وخلفَ الصلوات.

وله من المناقِبِ الحَميدة، والأخلاق المجيـــدة، والمواقـــفِ العظيمةِ ما يشهدُ له بعلوِّ الهَمَّةِ وصدقِ التضحيةِ، وإخــــلاصِ النيةِ، والتفاني في سبيلِ دينهِ وأمتِهِ، فلما بدأ التتارُ بهجومِـــهمُ الهمجي الكاسح خشيَ السلطانُ قُطُز أن يقعَ الخوفُ والوهـــنُ بين المقاتلين، وتختلفَ كلمةُ المسلمين لصغرِ سنِّ الملــكِ نـــورِ الدينِ علي بن أيبكَ، فعزَلَهُ ودعا بالبيعة لنفسهِ فبـــايعوه بـــلا

تردُّد، ثم مضى إلى التتارِ فقاتلهم، فجعـل اللهُ تعـالى نصـرةَ الإسلامِ والمسلمينَ على يديهِ كما سيأتي توضيحُهُ إنْ شـاءَ اللهُ تعالى.

تواضُعُهُ، وثقتهُ باللّهِ ورسولِهِ

روى أحمدُ بنُ الأثيرِ كاتبُ السرِّ في أيامِ الناصرِ صـاحب دمشقَ قال: كنا مع الناصرِ بوطاة[1] برزةَ إذ جاءت الكتـبُ تخبرُ أنَّ قطز قد تولّى الملكَ بمصرَ، فقرأتُ ذلك على السلطان، فقال: اذهَبْ إلى فلان وفلان وفلان فأخبرْهم بهذا.

قال: فلما خرجتُ عنه لقيني بعضُ الأجنادِ فقـال لي: جاءكُمُ الخبرُ من مصرَ بأن قطز قد تملّكَ ...؟

فقلتُ: ما عندي من هذا علمٌ، وما يدريكَ أنتَ بهذا...؟

قال: بلى، واللهِ سيلي المملكةَ ويكسرُ التتارَ.

فقلتُ: من أين تعلمُ هذا ...؟

فقال: كنتُ أخدمُهُ وهو صغيرٌ، وكان عليه قملٌ[2] كثـيرٌ فكنتُ أفلّيه وأهينُهُ وأذُمُّهُ، فقال لي يوماً: ماذا تريدُ أن أعطيَكَ إذا ملكتُ الديارَ المصريةَ ...؟

فقلتُ له: أنتَ مجنونٌ ...؟

---
(١) الوطاه: الأرض، وبرزة: قرية من غوطة دمشق.
(٢) القمل: معروف واحدته قملة، وهي دويبة صغيرة تعلق بالرأس والثياب عند تراكم الأوساخ

فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ في المنام وقال لي : أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول رسول الله ﷺ حق لاشك فيه، فقلت له حينئذ : أريد منك خمسين فارسا.

فقال : نعم، أبشر.

قال ابن الأثير : فلما قال لي هذا قلت له : هذه كتب المصريين بأنه قد تولى السلطنة، فقال : والله ليكسرن التتار، وكان كذلك.

فلما رجع الناصر إلى ناحية الديار المصرية وأراد دخولها، ورجع عنها ودخلها أكثر الجيوش الشامية كان هذا الأمير الحاكي في جملة من دخلها، فأعطاه المظفر إمرة خمسين فارسا ووفى له بالوعد، وهو الأمير جمال الدين التركماني.

قال ابن الأثير : فلقيني بمصر بعد أن تأمر فذكرني بما كان أخبرني عن المظفر، فذكرته.

قال : ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك فقاتلهم حتى كسرهم، وطردهم عن البلاد.

وكان رحمه الله تعالى رجلا صالحا، كثير الصلاة في الجماعة، ولم يكن يتعاطى المسكر ولا شيئا مما يتعاطاه الملوك.

وكانت مدة ملكه بعد المنصور بن المعز التركماني نحوا من سنة كما تقدم، رحمه الله تعالى، وجزاه عن الإسلام وأهله خيرا.[1]

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير.

استمرار الزحف المغولي
وسقوطُ حلب

بعد سقوط بغدادَ وقتلِ الخليفة سنة ٦٥٨ وقتلِ الخليفةِ المستعصم تابَعَ المغولُ زحفَهُمُ المدمِّرَ بقيادةِ هولاكو باتجاه الأجزاء الشماليةِ لبلادِ الشام، وكانوا قد عَقدوا تحالفات مع ملكِ الأرمنِ وملكِ إنطاكيةَ الصليبي تمهيداً لغزو الشامِ، وكانتْ مدينةُ حلبَ هدَفَهُمُ الأولَ.

هذا ... ولم يكنْ حينئذٍ للمسلمين خليفةٌ بعد المستعصمِ، فالعراقُ وخراسانُ وسائرُ بلادِ المسلمين في المشرق وإيرانُ ترزحُ تحتَ وطأةِ الاحتلالِ المغولي. فلم يبقَ في الميدانِ للتصدّي لهذا الهجوم الكاسح سوى مصرَ والشام.

فمصرُ كان يحكمُها السلطانُ قطز كما تقدمَ، والشامُ يحكمُها الأيوبيون، وقد ضَعُفَ أمرُهم، فكانوا أعجزَ من أن يواجهوا المغولَ منفردين، لاسيما وأنهم كانوا مشغولينَ بقتالِ بعضِهم، فدمشقُ وحلبُ كان يحكمُها الملكُ الناصرُ بنُ العزيزِ ابنِ الظاهرِ، وبلادُ الكركِ[1] والشوبكِ يحكمُها الملكُ المغيثُ بنُ

---

[1] الكرك : اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء، بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، والشوبك : قلعة حصينة قريبة من الكرك.

العادل بنِ الكاملِ محمدِ بنِ العادلِ أبي بكرِ بنِ أيـوبَ، وهـو مشغولٌ بحربهِ مع الناصرِ صاحبِ دمشقَ وحلبَ على المصريين، ومعهما الأميرُ ركنُ الدينِ بيبرسُ البندقداري، وقد عزموا جميعاً على قتالِ المصريين وأخذِ مصرَ منهم.

وبينما هم كذلك على هذه الحالِ السيئةِ إذِ الأنباءُ تتواتـرُ إليهمُ بقصدِ التتارِ بلادَ الشامِ، وأنهم قد عبروا الفـراتَ علـى جسورٍ خشبيةٍ ضخمةٍ كانوا قد أعدّوها مسـبقاً وهـمُ الآن يحاصرون مدينةَ حلبَ.

لقد تسمَّر حكامُ الشامِ في أماكِنهم، وأصبحوا حيارى من أمرِهم، ماذا عليهم أن يفعلوا ...؟ أيتابعون قتالَهم مع إخوانـهم في مصرَ، ويُخلوا الطريقَ للتتارِ لاحتلالِ الشامِ كلِّـها ...؟ أم يصالحونهم ليكونوا يداً واحدةً وصفاً واحـداً أمـام الزحـفِ المغولي الجارف ...؟ وهم يدركون تماماً أنهـم لا يسـتطيعون الوقوف في وجههم منفردين، لاسيما وقدِ انتشرَتْ أعمـالهُمُ الإرهابيةُ حتى مَلأَت البلادَ، وتولَّدَ عند الناسِ أنَ المغولَ أسـروا النفوسَ، وسيطروا على القلوب، وزرعوها خوفاً ورعبا وهَلَعاً وأنه لا يمكنُ لجيشٍ مهما بلغ من العددِ والعُدَد، والقوةِ والمنعـةِ أن يقفَ أمامهم بحالٍ من الأحوالِ، ولقد زحَفَ المغولُ علـى

بلادِ الشامِ، وعبروا الفراتَ، وحاصروا حلبَ والناسُ يعتقدون هذا الاعتقادَ . لذلك وجد الأيوبيون بالشامِ أنفسَهُم مضطرين إلى مصالحة المماليكِ بمصرَ، والاستنجادِ بهم للوقوفِ في وجهِ الغزوِ المغولي الهمجي الذي لا يعرفُ معنى الرحمةِ، ولا يلتزمُ بعهدٍ ولا ميثاق، ولا يرعى في المسلمين إلاًّ ولا ذمةً.

ولكنَّ فكرةَ مصالحةِ المماليكِ والاستنجادِ بهم جاءَت متأخرةً، فلم يتمكنِ الأيوبيون مع ضعفِهم وانشغالِهم بخلافاتِهم من الوقوفِ في وجهِ تدفقِ التيار المغولي، فكانتِ النتيجة احتلالَ المغولِ معظمَ بلادِ الشامِ، كما سيأتي بيانُهُ في موضِعِهِ إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

رسالةٌ من هولاكو يهددُ فيها حكامَ حلبَ

كتب هولاكوخان إلى حكامِ حلبَ كتاباً يهدِّدُهم فيه، ويحذِّرُهم مغبةَ المقاومةِ اليائسةِ، ويطلبُ إليهمُ الاستسلامَ، ويصورُ لهم ما حلَّ بالعصاةِ، وما فعلوه هم بالعبادِ والبلادِ، يريدُ بذلك تحطيمَ روحِ المقاومةِ لديهم، وزرعَ الخوفِ والهلعِ في قلوبِهِم، فكتب إليهم يقولُ:

(نحن إنما جئنا لقتالِ الملكِ الناصرِ بدمشقَ، فاجعلوا لنا عندكم شحنةً[1]، فإن كانتِ النصرةُ لنا، فالبلادُ كلُّها في حكمِنا، وإنْ كانَتْ علينا فإن شئتم قبلتم الشحنةَ، وإنْ شئتمْ أطلقتموه)

فأجابوه : ليس لك عندنا إلاّ السيفُ.

فعجب من جوابِهِم مع ضعفِهم، ثم زحَفَ إليهم بجيوشِهِ الجرارةِ فأحاطَ بالبلدِ وفرض عليه حصاراً دام سبعةَ أيامٍ، ثم أعطاهُمُ الأمانَ، فلما دخل البلادَ غدر بهم وسلّط عليهم جنودَهُ، وأطلق أيديَهم يفعلون بالسكان ما يشاؤون، فنكّلوا بهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا يعلمُ عَدَدهم إلاّ اللهُ عزَّوجل، ونهبوا الأموالَ، وسبَوا النساءَ والأطفالَ، وأنزلوا بهم قريباً مما أنزلوا بأهلِ بغدادَ، من قتلٍ وأسرٍ ونهبٍ وتمثيلٍ، فإنّا للهِ وإنّا إليه راجعون.

وامتنَعَتْ عليهمُ القلعةُ شهراً ثم أخذوها بالأمان، وهدّموا أسوارَ البلدِ وأسوارَ القلعةِ، وأضحَتْ حلبُ مدينةً بلا أسوارٍ ولا أبوابٍ يدخُلها المرتزقةُ السفاحون ويخرجون منها متى

[1] الشحنة : ذخيرة الحرب.

شاؤوا، وبقي أهلُها معتصمين في البيوتِ والخاناتِ والمساجدِ كأنهم سجناء، غرباءُ عن مدينتِهم ومنازِلِهم.

لقد دخل التتارُ مدينةَ حلبَ بلا مقاومةٍ، فعاثوا فيها الفسادَ، وجاسوا خلالَ الديار، وأهلكوا الحرثَ والنسلَ، وجعلوا أعزةَ أهلها أذلّةً، وكان نائبُها الملكَ توران شاه بنَ صلاح الدينِ، وكان عاقلاً حازماً، ولكنَّ الجيشَ خذَلَهُ فلم يوافقْ معه على القتالِ، فحَصَلَ ما حصَلَ، وكانَ أمرُ اللهِ قدراً مقدوراً، وكان ذلك سنةَ ثمانٍ وخمسين وستمائةٍ.

حتى إذا طار النذيرُ بأخبارِ التتارِ وما فعلوه بأهلِ حلبَ، فبلغَ مدينةَ حمصَ وحماةَ وغيرَهما من مدنِ الشامِ، نهضَ أولو الأمرِ وأصحابُ الرأي السديد من أهلِ حماةَ لمعالجة الموقفِ، واتخاذِ ما يرونه صواباً لحمايةِ المدينةِ وأهلِها، فرأوا أن الحكمةَ تقضي بتشكيلِ وفدٍ يذهبُ إلى حلبَ لمقابلةِ هولاكو واسترضائهِ وتسليمِهِ مفاتيحَ المدينةِ حقناً للدماءِ، وطلباً للأمان.

ووصلَ الوفدُ إلى حلبَ يحملُ مفاتيحَ حماةَ فسلمها لهولاكو الذي استناب عليها رجلاً أعجمياً يدّعي أنه من ذرية خالدِ بنِ الوليدِ ﷺ يقالُ له (خسروشاه) فذهب إلى حماةَ نائباً عن هولاكو، ومكث فيها وأمّنَ الناسَ على أنفسهم وأهلِهِم وأموالِهِم.

وكان بقلعةِ حماةَ رجلٌ يقالُ له : مجاهدُ الدينِ قيماز، فسلّم القلعةَ لخسروشاه ودخل في طاعة التتارِ.

سقوطُ دمشقَ

دخلَ التتارُ مدينةَ حماةَ، وكان المنصورُ الثاني قد خرج منها متوجهاً إلى دمشقَ للمساهمةِ في الدفاعِ عنها، وكان بقايا الأيوبيين مجتمعين على أرضِ برزةَ قربَ دمشقَ استعداداً لصدِّ هجومِ التتارِ، وبينما هم كذلك إذِ الأخبارُ تأتيهم بسقوطِ المدنِ، وهدمِ الأسوارِ، وتدميرِ مستودعات الأسلحةِ والعتادِ، وبيعِ الكتبِ بأبخسِ الأثمان، فأدركوا حينئذٍ الخطرَ الماحقَ الذي يتهدّدهم ويتربّصُ بهم، ولكنَّ الانقسامَ السياسيَّ الذي أشرتُ إليه فيما تقدم، وضعفَ بعضِ الحكامِ وتخاذلهم وخيانةَ بعضِهم جعَلَ الخوفَ يستولي على بعضِ النفوسِ، وبخاصةٍ حين دخل عددٌ من الأمراءِ الأيوبيين في طاعةِ هولاكو.

لهذه الأسبابِ كلِّها مجتمعةً وجد الأيوبيون أنفسَهم قد وقعوا بين فكّي كماشةٍ : التتارُ يتابعون زحفَهم ويلاحقونهم

من الشمال، والمماليكُ يتربّصون بهم في الجنوب، فأيقنوا أنـه لا سبيل للنجاةِ إلاّ بالتوجُّهِ إلى مصرَ، ووضــعِ أيديــهم في يــدِ السلطانِ المظفرِ قُطُز.

وكان هولاكو وهو مقيمٌ بحلبَ قد أرسل جيشاً مع أمـــيرٍ له من كبارِ أمرائهِ، وأكفأِ قواده يقـــالُ لـــه (كتبغـــانوين أو كيتوبوقا) ومعنى نوين : يعني أميرَ عشرةِ آلافِ مقاتلٍ، فـوردوا دمشقَ في أواخرِ شهرِ صفرَ، فدخلوها سريعاً من غير ممانعـــةٍ، ولامدافعةٍ، بل لقد تلقّاهم أمراؤها وكبراؤها بالترحيب وتقـديمِ الطاعةِ، فنوديَ بالناس أنّ هولاكو كتب أماناً لسكان دمشـــقَ، فاجتمعوا، فقُرئَ عليهم بالميدان الأخضرِ، فأمِنَ الناسُ ولكـــن بتحفظٍ مع توقعِ الغدرِ، كما فعل بأهلِ حلبَ.

هذا ... والقلعةُ ممتنعةٌ مستورةٌ، وعليها المجانيقُ منصوبـــةٌ، والأبصارُ شاخصةٌ والقلوبُ متفطـــرةٌ، والنفـــوسُ متزلزلـــةٌ، والظروفُ صعبةٌ وشديدةٌ، والناسُ لا يأمنون الغدرَ والمكـــرَ، ولكنهمُ استسلموا لأمرِ اللهِ وقضائهِ.

فتقدّمتْ جيوشُ التتارِ، وخيولُهم تجـــرُّ منجنيقـــاً كبـــيراً وهائلاً، وهم راكبون على الخيلِ، وأسلحتُهم محمولـــةٌ علـــى

الأبقارِ، فأوقفوا المنجنيقَ ونصبوه على القلعةِ من الجهةِ الغربيـةِ، ثم أحضروا حجارةً كثيرةً جعلوا يرمون بها القلعةَ رمياً سـريعاً كالمطرِ المتتابعِ، فهدموا كثيراً من أعاليها وشرفاتِها حتى تداعَتْ للسقوطِ، فأجابهم متولّيها للصلحِ، ففتحوها، وخرّبوا كلَّ بدنةٍ فيها، وأسقطوا أعاليَ بروجها، وقتلوا المتولّيَ بها، وهـو بـدرُ الدينِ بنُ قراجا ونقيبُها جمالُ الدينِ بنُ الصيرفي الحلبي، وسلموا البلدَ والقلعةَ إلى أميرٍ منهم يقالُ له : إبل سيان، وكان هـذا اللعين متعاطفاً جداً مع الصليبيين الذين قدموا إليه، وقدّموا بين يديه الولاءَ والطاعةَ، فاستقبلهم، وأحسَنَ إليهم، وعظّمَ أمرَهم، وذهبَتْ طائفةٌ منهم إلى حلب لمقابلةِ هولاكو، وأخذوا معهم هدايا كثيرةً وتحفاً نادرةً، فأعطاهم فرماناً فيه أمانٌ لهم منـه، فدخلوا من بابِ توما ومعهم صليبٌ كبـيرٌ منصـوبٌ علـى رؤوس الناسِ، وهم ينادون بشعارِهم ويقولون : ظهر الديـنُ الصحيحُ دينُ المسيحِ، ويذمّون دينَ الإسلامِ وأهلَـهُ، ومعـهم أوانٍ فيها خمرٌ، فكانوا يطوفون بها شوارعَ دمشقَ وأزقتَها، فـلا يمرّون ببابِ مسجدٍ إلاّ أراقوا عليه خمراً، وقماقمُ فيـها خمـرٌ جعلوا يرشون منها على وجوه الناسِ وثيابِهم، ويأمرون كـلَّ من يمرون به في الأزقةِ والشوارعِ والأسواقِ أن يقومَ لصليبهم.

ودخلوا من درب الحجر فوقفوا عند رباط الشيخ أبي البيان، ورشوا عليه خمراً، وكذلك فعلوا أمام مسجد درب الحجر الصغير والكبير، واجتازوا في السوق حتى وصلوا درب الريحان، فتكاثر عليهم المسلمون فردّوهم، فوقف خطيبٌ منهم فجعل يمدح دينَ النصارى والصليبيين، ويذمُّ الإسلام والمسلمين.

ورويَ أنهم دخلوا الجامعَ الأمويَّ ومعهمُ الخمرُ، وكان في نيتهم إن طالَتْ مدةُ التتار أن يهدموا كثيراً من المساجدِ وغيرِها، ﴿يريدون أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواههم ويأبى اللهُ إلاّ أن يُتمَّ نورَهُ ولو كرِهَ الكافرون. هو الذي أرسلَ رسولَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ ليظهرَهُ على الدّينِ كلّهِ ولو كرِهَ المشركون﴾[1] ﷻ.

لقد كانوا يفعلون ذلك تحرشاً بالمسلمين لاستفزازهم وإثارتهم، يريدونَ بذلكَ إشعالَ نارِ الفتنةِ بينهم وبين نصارى العرب بالشّامِ، ولكنَّ المسلمين كانوا أعقلَ من أن يثوروا، وأحلمَ من أن يردّوا على الصليبيين أو يقابلوا إساءتَهم وشَغَبهم بالمثلِ عملاً بقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿ولا تسبّوا الذين يدعون من دونِ اللهِ فيسبّوا اللهَ عدواً بغيرِ علمٍ﴾[2].

---

[1] الآيتان ٣٢-٣٣ من سورة براءة.
[2] الآية ١٠٨ من سورة الأنعام.

﴿ ولا تجادلوا أهلَ الكتابِ إلاّ بالّتي هي أحسنُ ﴾ [1].

فلما أسرف الصليبيون في غيِّهم، وتمـــادَوا في عدوانـــهم، ضاقَ المسلمون بهم ذرعاً، وشكوا ذلك إلى العلماء والفقـــهاءِ والقضاة الذين شكّلوا منهم وفداً رسمياً ليرفعوا الأمرَ إلى زعماءِ التتارِ، فكانوا أكثرَ شراسةً، وأقلَّ حياءً من الصليبيين، فســـخرَ منهم زعيمُ القلعةِ (إبل سيان) الذي كان أشدَّ وقاحةً من التتارِ والصليبيين، فأهان أعضاءَ وفدِ المسلمين وطردهـــم، بعـــد أن أصغى لزعماءِ الصليبيين، وقرَّبهم وأكرمهم.

﴿ويمكرون ويمكرُ اللهُ واللهُ خيرُ الماكرين﴾ [2].

﴿ولايحسبنَّ الذين كفروا أنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مهينٌ ﴾ [3].

﴿ لايغرنّك تقلّبُ الذين كفروا في البلادِ . متاعٌ قليلٌ ثم مأواهم جهنمُ وبئسَ المهادُ ﴾ [4] ﷻ .

---

[1] الآية ٤٦ من سورة العنكبوت.
[2] الآية ٣٠ من سورة الأنفال.
[3] الآية ١٧٨ من سورة آل عمران.
[4] الآيتان ١٩٦-١٩٧ من سورة آل عمران.

اجتماعُ الشاميين والمصريين تحت قيادة قطز

رأى العقلاءُ وأصحابُ الحلِّ والعقـدِ بالشـامِ أنهـم لا يستطيعون الوقوفَ في وجهِ هجومِ التتارِ إلاّ بوضعِ أيديـهم في أيدي إخوانهم المصريين، والإجتماعِ تحت قيـادة موحـدة. وبذلك يشكّلون معاً قوةً لا يُستهان بها، بل ربّما اسـتطاعَتْ هذه القوةُ أن تصدَّ العدوانَ المغوليّ المتغطرس، ذلك أنهـم رأوا أنّ المماليكَ بمصرَ استطاعوا أن يطردوا الصليبيين من دميـاطَ وغيرها، وأن يتغلّبوا عليهم في أكثرَ من موقعـةٍ، خاصـةً وأن سلطانَهُم المظفرَ قُطز رجلٌ عاقلٌ وشجاعٌ، يحمـلُ في نفسـهِ عقيدةً إسلاميةً صحيحةً وثابتةً، ونخوةً وشهامةً وغـيرةً علـى الإسلامِ وأهلِهِ، ولقدِ افتتح في مصرَ عهداً جديداً، كان بدايـةً سعيدةً لجميع المصريين.

لذلكَ توجَّه الشاميون إليه بقيادة ركنِ الديـنِ بيـبرس، والمنصورِ الثاني صاحب حماة، فألقوا قيادهم إلى المظفر قطـز الذي استقبلهم أحسنَ استقبال، وأكرَمَ نزُلَهم، ووعَدَهـم أن يكونَ معهم يداً واحدةً وصفاً واحداً لقتال العدو المشترك، وقد أدركَ أنَّ الخطرَ جسيمٌ، وأنَّ المغولَ سوف يدقون أبوابَ مصـرَ بعد فراغِهم من الشامِ، ثم لن يتورّعوا أن يفعلوا فيها كما فعلوا

بغيرها من البلاد التي فتحوها، من قتل ونهب وسطو وتمثيل...!!
وها هي طلائعُهُم قد وصَلَتْ إلى غزة[١]، فلا يستبعدُ أن يقوموا بهجوم كاسح على المصريين ويُحدِقوا بهم في عُقر دارهم، ولقد أصبح خطرُهم وشيكاً، وها هي ذي ساعاتُهُ قد دَقَّتْ، ولحظاتُهُ قد أزفَتْ.

مصيرُ الملكِ الناصرِ صاحبِ دمشقَ

لم يذهب الملكُ الناصرُ صاحبُ دمشقَ مع الشاميين إلى مصرَ، مع أنه رافقهم حتى بلغ معهم قَطْيَةَ[٢] فلم يدخل معهم مصرَ بل كرّ راجعاً، ودخلها جميعُ من كان معهُ، ولو دخلها معهم لكان خيراً له وأفضلَ مما انتهى إليه، فلقد دخل إلى ناحيةِ الكرك[٣] فتحصّنَ بها، يقول المؤرّخون : وليتَهُ استمرَّ فيها، ولكنه قلقَ فركبَ ومضى بينَ الجبال يطوف أرضَ الله الواسعة حتى انتهى بمفازة من الأرض، فاستجار ببعضِ أمراءِ الأعراب، هذا والتتار يطوفون البلاد بحثاً عنهُ حتى ألفوه عند الأمراءِ المذكورين، فهجموا عليهم فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وأهلكوا الحرث والنسل، ونهبوا الأموالَ، وخرّبوا الديار، وسبَوا النساء، وخطفوا الأطفال.

---

(١) غزة : مدينة في أقصى الشام من جهة مصر بينها وبين عسقلان فرسخان أو أقل وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان . انظر معجم البلدان.
(٢) قطية : قرية في طريق مصر في وسط الرمل قرب الفرما.
(٣) الكرك : تقدم تحديد موقعها.

ثمّ كرَّ عليهم فرسانُ تلك القبيلةِ من العـــربِ، فـــاقتصّوا منهم، وقتلوا وسبَوا، وأغاروا على خيولِهم ودوابِهم فاستاقوها بأسرِها.

فكرَّ عليهمُ التتارُ فلم يدركوا لهم غباراً، ولم يستردّوا منهم فرساً ولا حماراً.

ومازال التتارُ يتابعون بحثهم عنِ الملكِ الناصرِ حتى وجدوه عند بركةِ زيزي[1] فقبضوا عليه وأرسلوه مع ولدِهِ العزيزِ وهـــو صغيرٌ إلى ملكِهم هولاكوخان وهو مقيـــمٌ بحلـــبَ، فأودَعـــهُ السجنَ ومازالَ مسجوناً حتى قتلوه في سجنِهِ.

رسلُ هولاكو بين يدي المظفرِ قطز

كتب هولاكوخان ملكُ التتارِ كتابـــاً يحمـــلُ التـــهديدَ والوعيدَ، والتخويفَ والترهيبَ، يطلبُ من السلطانِ المظفرِ قطز إلقاءَ السلاحِ والاستسلامِ، ويضربُ له فيه الأمثال بمَن عصـــى أمرَهُ، وخرج عن طاعتِهِ، وما حلّ به نتيجةً لعصيانهِ ومحاربتِـــهِ، فإن هو ألقى السلاحَ وأعلنَ الاستسلامَ كان آمناً، وإن لم يفعلْ فالويلُ له، يقولُ في كتابهِ :

---

[1] لم أهتد إلى تحديد موقعها، ولم يذكرها ياقوت في معجمه.

(فَمَنْ طلب حربَنا ندِمَ، ومَنْ قصد أمانَنا سلِمَ، فإنْ أنتم بشرطِنا ولأمرِنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسَكم بأيديكم، فكثيرُكم عندنا قليلٌ، وعزيزُكم عندنا ذليلٌ، وبغيرِ الإهانةِ ما لملوككم عندنا سبيل)

إنّ هذه اللهجةَ القاسيةَ تدلُّ على شخصيةٍ متغطرسةٍ متعطشةٍ لإراقةِ الدماء، مهووسةٍ بحبِّ التسلّطِ والاستبداد.

ولكنَّ هذا الخطابَ لم يُرهبِ المظفرَ قطز، ولم يؤثِرْ فيه ولا في نفوسِ أمرائهِ وقادة جندِه شيئاً، بل لم يزدْهم ذلك إلاّ إيماناً بالله، وثقةً بنصرِه وتأييدِه، ذلك أنهم أدركوا أنهم هم حملةُ لواءِ الإسلامِ، وحماةُ الدينِ والعقيدةِ والمدافعون عن الإسلامِ والحضارةِ، وأنه على كواهِلهم سينهضُ الدينُ، وتعلو رايةُ الإسلامِ، وعلى قرارهم يتوقفُ مصيرُ أمةٍ ومدنيةٍ، ﴿وإنه لذكرٌ لك ولقومِكَ وسوف تُسْألون﴾[1] ﷺ.

من أجلِ هذا جمعَ السلطانُ قطز أمراءَهُ ومعاونيه وقادةَ الجندِ، وأخذَ يشاورُهم بالأمرِ، امتثالاً لقولِ الحقِّ تبارك وتعالى: ﴿ وشاورهم في الأمرِ ﴾[2]، ﴿ وأمرُهم شورى بينهم ﴾[3].

---

(1) الآية ٤٤ من سورة الزخرف.
(2) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(3) الآية ٣٨ من سورة الشورى.

فقالَ أحدُ الأمراءِ : إنه - أي هولاكو - ليس بالإنسان الذي يُطمأنُّ إليه، فهو لا يتورّعُ عنِ احتزازِ الرؤوسِ، وهو لا يفي بعهدِهِ وميثاقِهِ، فإنّهُ قتل فجأةً خورشاه، والخليفةَ، وحسامَ الدين عكه، وصاحبَ إربل بعد أن أعطاهُمُ العهدَ والميثاقَ، فإذا ما سرْنا إليه فسيكونُ مصيرُنا هذا السبيل.

وقال أخر : والحالة هذه ، فإنّ كافةَ بلادِ ديارِ بكرٍ وربيعةَ والشام ممتلئةٌ بالمناحاتِ والفجائعِ، وأصبحتِ البلادُ من بغدادَ حتى الرومِ خراباً يباباً ... وينبغي أن نختارَ مع هذه الجماعةِ التي تريدُ بلادَنا واحداً من ثلاثةٍ : الصلحَ، أو القتالَ أوِ الجلاءَ عن الوطنِ.

أما الجلاءُ عنِ الوطنِ فأمرٌ متعذرٌ، ذلك لأنه لا يمكنُ أنْ نجدَ لنا مقراً إلاّ المغربَ وبيننا وبينه مسافاتٌ بعيدةٌ.

فأجابَ أحدُهم قائلاً : وليس هناكَ مصلحةٌ أيضاً في مصالحتِهم إذ أنّهُ لا يوثَقُ بعهودِهِم.

وأخيراً، وبعد أن أدلى بعضُهم بدلوِهِ وأبدى برأيِهِ، قال السلطانُ قطز : إنَّ الرأيَ عندي هو أن نتوجَّهَ جميعاً إلى القتالِ، فإذا ظفرنا فهو المرادُ، وإلاّ فلنْ نكونَ ملومين أمام الخلق.

واتفقَ الجميعُ على ذلك، واستحسنوه ورأوا أنه الصوابُ.

ولقد لجأ السلطانُ قطز إلى تدبيرٍ جريءٍ، وإلى رأيٍ حكيمٍ وحازمٍ رفع به الروحَ المعنويةَ عند شعبِهِ وقادةِ جندِهِ، ذلك أنـه أمر بصلبِ رسلِ هولاكو، فصلبوا بالليل.

المظفرُ قطز يقودُ الجيش إلي عينِ جالوت

وافقَ الجميعُ على القتالِ ومنازلةِ التتارِ لمنعِهم من دخـول مصرَ، لذلك بادروا التتارَ بالهَجومِ قبل أن يبـادروهم، فعبَّـأَ السلطانُ قطز جيوشَهُ وقدِ اجتمعتِ الكلمةُ عليه، ووضعَ الناسُ مصيرَهم بين يديه، ومضى يطوف البـلادَ، ويقطـعُ المـهاد، ويطوي الأرضَ حتى انتهى إلى الشامِ، فاستيقظ له جيشُ المغولِ وعليهم (كتبغانوين) أو (كيتوبوقا) وكان إذ ذاكَ في البقـاعِ فنهض كيتوبوقا بجيشِهِ ومضى لمناجزة المظفرِ قطز، وقد أدهَشَتْهُ جرأةُ قطز وشجاعتهُ، إذ أنه القائدُ الوَحيـدُ الـذي بدأهـم بالهجوم، لذلك استشار أصحابَ الرأي والعقلِ من جندِهِ مـا هو فاعلٌ أمامَ الهجومِ الإسلاميِ غيرِ المتوقعِ ...؟

فأشاروا عليه بأنه لاقِبَلَ له بالمظفرِ حتى يطلبَ المددَ مـن هولاكو.

ولكن غرورَهُ وطيشَهُ وإعجابَهُ بنفسِهِ أبى إلاّ أنْ ينـــاجزَهُ سريعاً، فسار إلى قطز وسار قطز إليه فالتقيا على عينِ جالوتَ، حيثُ كانتِ المناجزةُ الكبرى، والملحمةُ العظمى أبدى فيـــها المسلمون بطولات رائعة، وثبتوا فيها ثباتاً مشرفاً، وأبلَوا فيـــها بلاءً حسناً، وأظهروا فيها شجاعات عظيمةً تفوقُ الخيالَ.

وكان يوماً عظيماً ومشهوداً من أيامِ العـــربِ المســـلمين، ولسوف يبقى غرّةً في جبينِ تاريخِهم، وصفحةً بيضاءَ ناصعـــةً من صفحاتِ أمجادِهم وبطولاتِهم ...!!

بدء القتال

وفي صبيحة يومِ الجمعةِ الخامس والعشـــرين مـــن شـــهرِ رمضانَ المباركِ كانتِ الموقعةُ الفاصلةُ بين المسلمين والتتـــارِ في موضعٍ يقالُ له (عين جالوتَ) في أرضِ فلسطينَ بين بيســـانَ ونابلسَ .

ولقد تفاءل المسلمون بالنصرِ قبلِ بدءِ القتـــالِ، واعتـــبروا وقوعَ المعركةِ في شهرِ رمضانَ بشارةً عظيمةً بنصرِ اللهِ وتأييدِه، ذلك أن وقعةَ بدرٍ كانَتْ يومَ الجمعةِ في رمضانَ أيضاً، وكـــانَ فيها نصرُ الإسلامِ والمسلمين.

ولقد أمرَ السلطانُ المظفرُ قطز أمراءَ الجندِ، وذلك حينَ رأى جيوشَ التتارِ ، فقال لهم : لا تقاتلوهم حتى تزول[1] الشمسُ، وتفيءَ الظلالُ، وتهبَّ الرياحُ، ويدعو لنا الخطباءُ على المنابرِ، والناس في صلاتِهم.

وبدأ القتال قوياً ضارياً، وجعل المسلمون شعارَهم في القتال: (واإسلاماه) وقدر اللهُ تعالى أن ينتَصِرَ الإيمانُ على الكفرِ، والإسلامُ على الوثنيةِ، والإنسانيةُ على البربريةِ، والحضارةُ على الهمجيةِ، وقُتِلَ قائدُ جيشِ المغولِ كتبغانوين، أو كبتوبوقا قتله الأميرُ جمالُ الدينِ آقوشِ الشمسيّ، وقُتِلَ معظمُ قواد جيشِ التتارِ، وفرّ جنودهم في الأرضِ، وتفرّقَ جمعُهُم، وتَشتّتَ شملُهم، ومزِّقوا شرَّ ممزّق، وذاقوا لأول مرةَ مرارةَ الهزيمةِ، وشربوا من الكأسِ التي أسقَوها مراراً للآخرين.

لقد هُزِمَ الجيشُ المغولي الذي لا يُقْهَرُ، ودفع المغولُ ثمنَ غرورِهم وجبروتِهم وغطرستِهم غالياً جداً، وفقدوا خيرةَ فرسانهم ومعظمَ جنودِهم، كما فقدوا هيبتَهم ومكانتَهم من قلوب الآخرين.

لَقد أدرك الناسُ أنَّ هؤلاء الهمجَ يمكنُ قهرُهم، ولقد قُهروا فعلاً وقُتلوا وهربوا وشُرِّدوا، وحُطِّمَتْ أسطورةُ الجيشِ الذي لا يُقْهَرُ على صخرةِ صمودِ المسلمين وبسالتِهم.

---

[1] زوال الشمس : ميلها جهة الغروب، والمراد : وقت الظهيرة.

لقد تحررتِ النفوسُ من الخوفِ الذي كان يسيطرُ عليها هؤلاء الهمجِ الرعاعِ وانتُزِعَ الرعبُ الذي كان يملأُ قلوبَ الناس، ويزرعُ فيها الجبنَ والخورَ واليأسَ والقنوطَ، وعاد الأملُ يرفرفُ على النفوسِ من جديدٍ، وأحيا فيها الثقةَ بأنَّ كلَّ ظالمٍ له نهايةٌ، وأنَّ كلَّ قوي سيأتيه مَنْ هو أقوى منه، ولقد تدخَّلتِ العنايةُ الإلهيةُ فكانَتْ عوناً للمسلمين، وأنزلَ اللهُ نصرَهُ على عبادِه، وهَزَمَ الشرَّ وأعوانَهُ، ﴿فقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ للّهِ ربِّ العالمين﴾[1]. ﷻ.

مواقفُ بطوليةٌ

حين رأى جنودُ التتارِ مصرعَ قائدِهم كيتوبوقا وغيرِه من قادتِهم وفرسانِهم، غادروا مواقعَهم ولاذوا بالفرارِ، فتَبِعَهُم المسلمون يقتلونهم في كلِّ جهةٍ، حتى تفرقوا في الأرضِ وجنودُ المسلمين يلاحقونهم من مكانٍ لآخر وينزلون بهمُ الضرباتِ القاصمةَ والموجعةَ.

فلقد قاتل الملكُ المنصورُ صاحبُ حماةَ إلى جانبِ الملكِ المظفرِ قطز قتالاً شديداً، وأبلى يومئذٍ بلاءً حسناً.

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الأنعام.

ولقد وقع في الأسرِ الملكُ السعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ العادلِ، وكان يقاتِلُ مع التتارِ فأمر السلطانُ قطز بضرب عنقِهِ.

وألقى الملكُ الأشرفُ صاحبُ حمصَ سلاحَهُ، وسلَّمَ نفسَهُ للمسلمين وطلب منهمُ الأمانَ، وكان يقاتلُ مع التتارِ، فأمنه المظفرُ قطز، ثم ردَّ إليهِ حمصَ، وكذلك ردَّ حماةَ إلى المنصورِ، وزادَهُ معرةَ النعمان وغيرَها.

واتبعَ الفارسُ الكبيرُ ركنُ الدين بيبرس فلولَ المنهزمين من التتارِ ومعه عددٌ من الفرسان الشجعانِ يقتلونهم في كلِّ مكانٍ، ولم يزالوا يفعلون بهم كذلك حتى وصلوا إلى حلبَ، وهم خلفهم يقتلون فريقاً ويأسرون فريقاً، أما الأسرى فلم يمهلوهم فقتلوهم جميعاً لأنَّ تركَهُم أحياءَ عبءٌ ثقيلٌ عليهم.

ومن كان من التتارِ بدمشقَ أخلى موقعه منها واشتدَّ هارباً، فتبعهُم المسلمون من دمشقَ يقتلونهم، ويأخذونَ مَنْ بأيديهم من الأسرى.

وفي اليومِ السابعِ والعشرين من شهر رمضانَ المبارك، أي بعد المعركةِ بيومين فقط جاءت البشائرُ إلى دمشقَ، بالنصرِ والظفرِ، فأجابها دقُّ البشائرِ منَ القلعةِ، وقرعَتِ الطبولُ،

وارتفعتِ الزغاريدُ، وعَلَتِ الهتافاتُ في الشوارعِ والأسـواقِ وازدانتِ المساجدُ، وعلا المـآذنَ الآذانُ وشـعارُ التوحيـدِ، وتحولَتْ مدينةُ دمشقَ بأسرِها إلى مهرجانٍ كبيرٍ حافلٍ بـالفرحِ والبهجةِ والسرورِ، بعد أنْ خيَّمَ عليها حزنٌ مطبِّقٌ اعتصرَ الناس ألماً، وأدمى قلوبهمْ أسىً ولوعةً، ثم أبدَلَهُم اللهُ تعـالى بـالحزنِ فرحاً، وبالألمِ أملاً، وبالأسى سعادةً، وباللوعةِ غبطةً وسـروراً. وصدق الله العظيم وهو القائلُ في كتابهِ الكـريمِ : ﴿كل يومٍ هو في شأنٍ﴾ [1]

﴿وعدَ اللهُ الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحاتِ ليَستَخلِفنَّهم في الأرضِ كما استخلفَ الذينَ من قبلِهم وليمكننَّ لهم دينَهُمُ الذي ارتضى لهم وليُبَدِّلنَّهم من بعدِ خوفِهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومَنْ كفر بعد ذلك فأولئك هـمُ الفاسقون﴾. [2] ﴿صدق الله العظيم﴾.

ولقد فرِحَ المسلمون في جميعِ البلدانِ الإسلاميةِ بنصـرِ اللهِ فرحاً شديداً، وقُرِئَ القرآنُ الكـريمُ في المسـاجدِ والمـدارسِ والمجالسِ العامةِ وفي البيوت، وأُقيمتِ الصلواتُ شكراً للهِ تعـالى على نصرِ جندِه، وخذلانَ عدوِّه، ووقفَ الخطبـاءُ والعلمـاءُ والشعراءُ والأدباءُ أمامَ الناسِ يدعونَ للسلطانِ المظفـرِ قطـز وللمسلمين ولجميعِ المجاهدينَ في سبيلِ اللهِ، ويمجدون أعمالَـهُم

(1) الآية ٢٩ من سورة الرحمن.
(2) الآية ٥٥ من سورة النور.

البطوليةَ ومواقفَهُمُ الرجوليةَ والشجاعةَ، ويخلّدون ذكرى موقعةِ عين جالوت، وما قدّم فيها المقاتلون المسلمون من جهدٍ مشكور، وعملٍ مبرور، وشجاعةٍ فائقةٍ، وتضحيات نادرة تستحقُّ الشكرَ والمدحَ والثناءَ والمجدَ والعرفان من ذلك اليومَ الأغَرِّ المشهود، وإلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها.

لقدِ انتهتْ معركةُ عينِ جالوتَ بنصرٍ ساحقٍ للمسلمين، وهزيمةٍ منكرة للتتارِ الهمجيين وأعادَتْ للإسلامِ وجهَه المشرقَ، وللمسلمين عِزّتَهم وكرامتَهم.

وكبتَ اللهُ الصليبيين والمغولَ ومَنْ والاهم من اليهود والمنافقين، وظهر دينُ الله، ﴿وجعل الله كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا والله عزيز حكيم﴾[1] فتبادر المسلمون الذين أُهينوا بالأمسِ من قِبَلِ الصليبيين إلى كنيستِهِمُ التي انطلقوا منها، فأخذوا ما فيها وأحرقوها، وألقوا النارَ فيما حولها فاحترقَتْ منازلُ كثيرةٌ لبقايا الصليبيين، وملأ اللهُ بيوتَهم وقبورَهم ناراً.

وانطلق الناسُ إلى رجلٍ من المنافقين كان جاسوساً للتتار، ومعيناً لهم على أموال المسلمين يقالُ له: الفخرُ بنُ محمدِ بنِ يوسفَ بنِ محمدٍ الكنجي فقتلوه داخل المسجدِ لسوءِ معتقدِهِ ونفاقِهِ وخبثِ طويتِهِ.

[1] الآية ٤٠ من سورة التوبة.

وقتلوا غيرَه من المنافقين وعملاءِ التتارِ، فقُطِعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمدُ لله ربِّ العالمين.

شجاعةُ الملكِ المظفرِ قطز وبلاؤهُ

حين التقى الجمعان بعينِ جالوتَ قُتلَ جوادُ المظفرِ قطز، فجعل يصولُ ويجولُ في أرضِ المعركةِ راجلاً مثبتاً قدميه لا يتحركُ وهو يردُّ جموعَ المقاتلين المغول، فرآهُ بعضُ أمراءِ جندِهِ فترجَّلَ عن فرسِهِ وأقسَمَ عليه ليركبنَّها، فامتنعَ الملكُ قطز وقال للأميرِ : ما كنتُ لأحرمَ المسلمين نفعَكَ.

فلامهُ بعضُ الأمراءِ وقال له : أيها الملكُ، لِمَ لا ركبتَ فرسَ فلانٍ ...؟ فلو أنَّ بعضَ الأعداءِ رآكَ لقتلكَ وهَلَكَ الإسلامُ بسببكَ.

فأجابه بجواب ملؤهُ الإيمانُ باللهِ والثقةُ بنصرِهِ، فقال : أما أنا إنْ قُتِلْتُ ذهبتُ إلى الجنةِ، وأما الإسلامُ فله ربٌّ لا يُضيعُهُ، قد قُتِلَ فلانٌ ... وفلانٌ ... وفلانٌ، وذكر عدداً من الملوك، فأقام الله للإسلامِ مَنْ يحفظُهُ غيرَهم، ولم يضيعِ الإسلامُ ...!!

مقتلُ كيتوبوقا قائدِ جيش المغول

كان الخبيثُ كتبغانوين، أو كيتوبوقـا السـاعدَ الأيمـنَ لهولاكوخان، وكان هولاكو يعتمدُ عليه كثيراً في الحـروب، فلقد فتح له أقصى بـلادِ العجـمِ إلى الشـامِ، وقـد أدرك جنكيزخان جدّ هولاكو.

وكان كتبغا هذا يعتمدُ في حروبِهِ ضدَّ المسـلمين أمـوراً لاإنسانيةً لم يسبقْهُ إليها أحدٌ، ذلك أنه كان إذا فتح بلداً سـاق مقاتلتَهُ إلى البلدِ الآخرِ الذي يليه وطلب من أهلِ ذلك البلدِ أنْ يؤوا هؤلاء إليهم، فإنْ فعلوا حصل مقصوده في تضييق الطعـام والشراب عليهم، وبذلك تقصرُ مدةُ الحصارِ بسببِ ما يعانونـهُ من فقدانَ الماء والمواد الغذائيةِ.

وإنِ امتنعوا عن إيوائِهِم عندهم قاتلَهم بجنود ذلك البلـدِ الذي فتَحَهُ من قبلُ، فإنْ حصل لَهُ الفتحُ وإلاّ كانَ قد أضعـفَ أولئكَ بهؤلاءِ حتى يقضيَ على الفريقين، فإنْ حَصَلَ الفتـحُ وإلاّ قاتَلَهُم بجندِهِ الذين كانوا براحةٍ تامةٍ فيفتحُ هُمُ البلدَ سريعاً.

وكان لَعنهُ اللهُ يخاطبُ أهلَ الحصنِ فيقولُ لهم : إنَّ ماءكم قد قلَّ فنخشى أنْ نأخذكم عنوةً فنقتلكُم عن آخرِكم، ونسبي نساءكم وأولادَكم، فما بقاؤكم بعد ذهابِ مائِكم.؟ فـافتحوا صلحاً قبل أنْ نأخذَكُم قسراً.

فيصدّقونه ويقولون له : إنَّ الماءَ عندنا كثيرٌ فلانحتـــاجُ إلى ماءٍ.

فيقولُ: لا أصدقُ حتى أبعثَ مِنْ عندي مَنْ يشرفُ عليــه، فإنْ كان كثيراً انصرفتُ عنكم.

فيقولون : ابعَثْ مَنْ يشرفُ عليه.

فيرسلُ إليهم رجالاً من جنودِه معهم رماحٌ مجوفةٌ محشـــوةٌ سُمّاً، فإذا دخلوا ذلك الحصنَ أدخَلوا رماحَهُمُ المسمومةَ علـــى أنهم يكتشفون كميةَ الماءِ، فيخرجُ السُمُّ من تجويفِ الرمــــاحِ فيستقرُّ في داخلِ الماءِ، فإذا شربوا منه كان سببَ هلاكِهم وهم لا يشعرون.

وكان ضخماً طويلاً له لحيةٌ طويلةٌ مسترسلةٌ، وكان مـهيباً شديدَ السطوة.

فلما بلغَهُ خروجُ الملكِ قطز فوجئَ بهذا الخبرِ، وغضــــبَ غضباً شديداً، وأخذَتْهُ العزةُ بالإثمِ، وقال حانقاً مغضباً : كيف يبدؤونني بالقتالِ، وأنا مَنْ أبدأُ الناسَ ...؟

كيف يجرؤُ هذا المسلمُ أنْ يأتيَ بجنودِه إليَّ قبل أن أنذرَهُ...؟

إنّهُ الكبرُ والغرورُ والغطرسةُ والعزةُ بالإثمِ فحسبُهُ جـــهنمُ ولبئسَ المهادُ.

قال هذا، وكان معسكراً في البقاع، فاستشار الأشرفَ صاحبَ حمصَ، والحجيرَ بنَ الزكي ومَنْ كان يقاتلُ معه من المنافقين الذين سيطر عليهمُ الخوف فدانوا له ولهولاكو بالطاعةِ، فأشاروا عليه بأنه لا قِبَلَ له بالمِلكِ قطز حتى يستمدَّ هولاكو بالرجال والمقاتلين.

ولكنه أبى إلاّ أنْ يناجزَهُ سريعاً، فذهبَ بجيشِهِ فالتقيا بعين جالوت، وكأنّهُ سعى بنفسهِ إلى حتفِهِ، وهو يعتقدُ أنه سيلقى خصماً ليناً يستطيعُ أنْ يتغلَّبَ عليه كما تغلَّبَ على غيرِهِ بسرعةٍ وبدون مقاومةٍ.

فلما التقى الجيشان حمل كيتوبوقا على ميسرةِ جيشِ المسلمين فكسرها، فرآهُ الأميرُ جمالُ الدينِ آقوشُ الشمسي فحمل عليه، وصمد لهُ، ثم لم يلبثْ أنْ أرداهُ قتيلاً، فحملَ المسلمون على التتارِ حملةَ رجلٍ واحدٍ جعلوهم شَذَرَ مَذَرِ وهزموهم هزيمةً منكرةً، ومضوا خلفهم يطاردونهم ويقتلون فريقاً منهم ويأسرون فريقاً، فلم تنتهِ هزيمتُهم حتى بلغوا حلبَ كما تقدم، فكان من جملة مَنْ أسروا ابن كيتوبوقا، وكان شاباً جميلاً، فلما عرفوه أحضروه بين يدي المظفرِ قطز فقال له: أهرب أبوك ...؟

فأجابَهُ في غطرسةٍ وغرورٍ : إنَّ أبي لا يهربُ .

فطلبوه فوجدوهُ بين القتلى، وكأنَّ قاتِلَهُ الأميرَ آقوشَ لم يعرفْهُ حين قتلَهُ، فلما رآه ابنُهُ صرخ وبكى، ثم تحقق السلطان قطز أنَّ المقتولَ صاحبَ الجسدِ الممدّد أمامَهُ هو كيتوبوقا فعلاً، فسجدَ سجدةَ شكرٍ لله تعالى، ثم قالَ: الآن أنامُ طيباً، كان هذا سعادةَ التتارِ وبقتلِهِ ذهب سعدُهم.

وهكذا كانَ كما قالَ، ولم يفلحوا، ولن يفلحوا بعدهُ أبداً، فلقد كانت هزيمتُهم في معركةِ عين جالوتَ هي الشعرةَ التي قَصَمَتْ ظهرَ البعيرِ، وبدايةً لهزائمَ منكرةٍ كثيرةٍ ومتتاليةٍ بعدها.

نتائجُ معركةِ عينِ جالوتَ

كانَتْ معركةُ عينِ جالوتَ بحق مفخرةً من مفاخِرِ العرب والمسلمين، ويوماً أغرَّ عظيماً من أيامهم، ولسوف يبقى وإلى يومِ القيامةِ غرّةً بيضاء ناصعةً في جبين التاريخ.

ولقد أسفَرَتْ هذه المعركةُ الخالدةُ عن نتائجَ كثيرة، منها:

١- أنَّ النصرَ بيدِ الله تعالى يؤيدُ به مَنْ يشاءُ من عبادِه حين يستوفونَ شروطَ النصرِ والتأييدِ ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ [1].

وليستِ العبرةُ بالعددِ ولا بالعدة، قال اللهُ تعالى: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ [2] ﷻ.

(١) الآية ١٢٦ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة.

من سنةِ اللهِ تعالى في خلقِهِ أنْ ينتصرَ الإيمانُ على الكفـــر، وأنْ يتصارعَ الحقُ مع الباطلِ، وأنْ يصطدمَ الخيرُ معَ الشـــرِّ في جولاتٍ لا يلبثُ الباطلِ بعدِ ذلكَ أنْ يخـــرَّ صريعـــاً مجنـــدلاً، تصديقاً لقولِ الحقِّ تباركَ اللهُ وتعالى: ﴿ فأمّا الزبدُ فيذهبُ جُفاءً وأما ماينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ﴾ [1].

﴿ وقُلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطلَ كان زهوقاً﴾ [2].

﴿قُلْ جاءَ الحقُّ وما يبدئُ الباطلُ وما يعيدُ﴾ [3] ﷻ.

٢- لقد هُزِمَ الجيشُ المغوليُّ الذي لا يُقْهَرُ، وهربَ يجرُّ أذيـالَ الخيبةِ والذلِّ والعار، وتحطَّمَتْ أسطورتُهُ على صخـــرة صمودِ وثباتِ المسلمين الذين حوَّلوا وبفضلِ إيمانهم بـاللهِ تعالى، وعدالةِ قضيتِهم قوةَ العدوِّ إلى ضعفٍ، وجبروتَـــهُ إلى جبنٍ، وكثرتَـــهُ إلى قلـــةٍ، ﴿ولله العـــزةُ ولرســـولِهِ وللمؤمنين ولكنَّ المنافقين لا يعلمون﴾ [4].

٣- لقد كانتْ معركةُ عينِ جالوت فاتحةَ سلسلةٍ من المعـــارك التي خاضها المسلمونَ ضدَّ المغول، فحطّموا أســـطورتَهم وكبرياءَهم وقواهم، وطهّروا بلادَ الشامِ من رجســـهِم، وأنقذوا الإسلامَ والمسلمينَ من شرِّهِم وفسادِهِم.

٤- لقد حرَّرت معركةُ عينِ جالوت النفوسَ مـــنَ الخـــوفِ الذي تملّكها وسيطرَ عليها، وانتزعَتِ الرعبَ من القلوبِ

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد.
(٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء.
(٣) الآية ٤٩ من سورة سبأ.
(٤) الآية ٨ من سورة المنافقين.

الذي ملأها يأساً وقنوطاً، وجبناً وخَوَراً، وزرَعَتْ فيها الأملَ والحياة والثقة بمستقبلٍ آمنٍ كلُّهُ رغدٌ وأمنٌ واطمئنانٌ وسلام.

٥- لما فرغَ الملكُ المظفرُ قطز من أمرِ التتارِ وهَزَمَهُم في معركةِ عينِ جالوت تابعَ فلولَهُمْ المنهزمين، ومضى يطاردهم حتى دخل دمشقَ في أبهةٍ عظيمةٍ، وفرح بهِ الناس فرحاً شديداً، واستقبلوه استقبالَ الأبطالِ المنتصرين، وهو كذلك ولقد تأكدَتْ له السلطنةُ على بلادِ الشام، وتقبلها الناس بقبول حسَنٍ لاقتناعِهم بأن دخولَ المماليكِ إلى الشامِ كان بمثابةِ تحريرٍ وإنقاذٍ، لا دخولَ غزوٍ أو سيطرة أو استيلاء.

لم ينسَ الملكُ المظفرُ قطز بلاءَ المنصورِ الثاني صاحب حماةَ[1]، وما قدّمهُ من بسالةٍ وثبات في وجهِ التتار، فصحِبَهُ معه إلى دمشقَ، ثم أمّرَهُ على عملِهِ في حماةَ وبارين[2]، وضمَّ إليهِ معرةَ النعمان[3] كما تقدم، وكان خسروشاه قد غادر حماة إثر هزيمةِ المغولَ مقتفياً آثارهم.

وطلبَ الأشرفُ صاحبُ حمصَ الأمانَ من الملكِ المظفرِ، وكان الأشرفُ يقاتلُ مع التتارِ كما تقدّم فأمَّنهُ المظفرُ وردّ إليهِ حمصَ.

---

(١) حماة : مدينة عظيمة معروفة ومشهورة في القطر العربي السوري، وكذلك حمص فهما أشهر من أن يعرف بهما.

(٢) بارين ، والعامة تقول : بعرين : مدينة حسنة بين حلب وحماه من جهة الغرب .

(٣) مدينة كبيرة مشهورة، وهي اليوم تابعة لمحافظة إدلب بالقطر العربي السوري.

وأطلقَ سلميةَ[1] للأمير شرفِ الدينِ عيسى بن مهنا بنِ مانع أمير العرب.

٦- لقدَ كتبَ اللهُ ﷻ النصرَ علىِ أيدي المماليكِ الذينَ استطاعوا قَهْرَ المغولِ وإلحاقَ هزيمةٍ منكرةٍ بهم ولأولِ مرةٍ في تاريخِهم.

كما استطاعوا أن يحولوا المدّ المغوليَّ إلى جزر، ونصرَهم إلى هزيمةٍ، وقوتَهم إلى ضعفٍ، وأنْ يطردوهم عن بلادِ الشامِ بأسرِها، ويزيلوهم منها إلى الأبدِ.

٧- تم ضمُّ بلاد الشامِ كلّها إلى حكمِ المماليكِ، وبذلك يصبحُ الملكُ المظفرُ قطز سلطانَ المماليكِ في مصرَ والشامِ، الأمرُ الذي يؤكدُ عمقَ الصلةِ بينَ مصرَ والشام والعلاقةَ الحميمةَ بين الشعبين في القديم والحديثِ، وهذا ما نلمسُهُ اليومَ عملياً، ولسوف تبقى العلاقةُ حميمةً بين الشعبين إلى يومِ القيامةِ إنْ شاء اللهُ تعالى.

٨- لحق القاضيان المعزولان صدرُ الدين بنُ سني الدولةِ، ومحيي الدينِ بنُ الزكي هولاكوخانَ إلى حلبَ، الذي استقبلهما، ورحَّبَ بهما لما قدّما له من خدماتٍ، وقاتلا مع جندِهِ في عينِ جالوتَ ضدَّ المسلمين.

---

[1] سلمية : بفتح السين واللام وياء مخففة : بليدة من أعمال حماه بينهما مسيرة يومين، قال ياقوت : سلمية قرب المؤتفكة، فيقال : إنه لما نزل بأهل المؤتفكة ما نزل من العذاب رحم الله منهم مائة نفس فسميت سلم مائة، ثم حرف الناس اسمها فقالوا : سلمية. معجم البلدان.

وكان ابنُ الزكي قد قام بخداعِ ابنِ سني الدولة فبذلَ أموالاً كثيرةً ليتولّى القضاءَ بدمشقَ أيّامَ الاحتلالِ المغولي، فتولاّه فعلاً بتقليدٍ من هولاكوخان شخصياً.

فجلس ابنُ الزكي للقضاءِ ومعه تقليدُهُ من هولاكو، وخلعةٌ مذهبةٌ، فلبسها وجلسَ في خدمةِ إبل سيان المتقدمِ ذكرُهُ تحت قبّةِ النسرِ عند البابِ الكبيرِ، وبينهما الخاتون زوجةُ إبل سيان، أو سنانَ حاسرةً عن وجهها، فقُرئَ التقليدُ أمامَ الناسِ، وحينَ ذُكِرَ اسمُ هولاكو نثر ابنُ الزكي الذهبَ والفضةَ على رؤوسِ الناس.

فلمّا فرغَ الملكُ المظفرُ من الشامِ وعَزَمَ على الرجوعِ إلى مصرَ جعل على دمشقَ الأميرَ علمَ الدينِ سنجرَ الحلبيَّ الكبيرَ، والأميرَ مُجيرَ الدينِ بنَ الحسينِ بنَ اقشتمر، وعزلَ القاضي ابنَ الزكي عنِ القضاءِ، وولّى ابنَ سني الدولةِ، ثم غادرَ دمشقَ إلى مصرَ، والعساكرُ الإسلامية في خدمتِهِ، وعيونُ الناسِ تنظرُ إليهِ وجلاً من شدةِ هيبتِهِ ووقارِه.

مقتلُ الملكِ المظفرِ قطز

بعد الانتصارِ الساحقِ الذي حقّقَهُ الملكُ المظفرُ قطز، أخذ يتتبعُ فلولَ الهاربينَ من التتارِ، وكانَ قد أرسل بين يديه الأميرَ ركنَ الدين بيبرسَ البندقداري ليطردَ التتارَ عن حلبَ، ويحرّرَها

من غيِّهم وفسادهم، ووعدَه أنْ يجْعَلهُ حاكماً لها إنْ هو نجَــحَ بطردهِم، فلمّا نجحَ بمهمتِهِ وطردَ التتارَ عنها، لم يفِ الملكُ قطز بوعدِهِ لما رأى من المصلحةِ أن يبقى ركنُ الديــنِ بيــبرسُ إلى جانبهِ، وعيَّنَ عليها علاءَ الدينِ ابنَ صاحبِ الموصلِ، فكـــان ذلك سببَ الوحشةِ التي وقعَتْ بينهما.

فلما عزمَ الملكُ المظفرُ على السفرِ إلى الديارِ المصريةِ، كـان بصحبتهِ عدد من الأمراءِ وفيهم ركنُ الدين بيبرسُ، وفي الطريقِ عدا عليهِ الأمراءُ فقتلوه، ثم كرّوا راجعين إلى مخيمِهم الـــذي ضربوه في الطريق قبل أنْ يعتدوا على الملك قطز، فلما دخلــوا المخيّمَ وبأيديهمُ السيوفُ مصلتة، قالوا لمن كـــان هنـــاكَ: إنّ الملكَ قد قتِلَ، فتسَمَّرَ الناسُ في أماكنِـــهم وقـــالوا في دهشـــةٍ واستغراب : مَنْ قتَلَهُ ...؟

قالوا : ركنُ الدينِ بيبرسُ.

فقالوا : أنتَ قتلتَهُ ...؟

قال : نعم .

فقالوا : أنتَ الملكُ إذن.

وقيل : إنه لما قُتِلَ الملكُ حار الأمراءُ في أمرِهم، ولم يـدروا مَنْ يولّونه ملكاً، وأصبح كلُّ واحدٍ منهم يخشـــى مســـؤوليةَ ذلك، ثم اتّفقَتْ كلمتُهم على أن يُبايعوا بيبرسَ البندقـــداري، ولقبوه بالملك الظاهر.

وقد كان الملكُ المظفرُ قطز رحمه اللهُ تعالى استناب على دمشقَ الأميرَ علمَ الدينِ سنجرَ الحلبيَّ كما تقدّم، فلما سمعَ بمقتلِ الملكِ المظفرِ دخل القلعةَ ودعا بالبيعة لنفسه، وتسمّى بالملك المجاهِدِ.

فلما جاءتِ البيعةُ لركنِ الدين بيبرس خطبَ لهُ يومَ الجمعةِ، فدعا الخطيبُ أولاً للملكِ المجاهدِ، ثم دعا للظاهرِ بيبرس ثانياً.

ذكرُ تملكِ الظاهرِ بيبرس السلطنةَ

هو الأسدُ الضاري ركنُ الدينِ الظاهرُ بيبرس البندقداريُّ، وكان قد نقم على الملك المعظمِ قطز حين وعَدَهُ بنيابة حلبَ ثم استنابَ غيرَهُ عليها، فلمّا كان برفقتِهِ في الطريق إلى الديارِ المصريةِ تآمرَ عليه مع بعضِ الأمراءِ فقتلوهُ، كما تقدّم، ثم بُويع بالمُلْكِ ولقّبَ نفسَهُ بالملكِ القاهرِ، فقالَ له الوزيرُ: إنَّ هذا

اللقَبَ لا يفلحُ مَنْ يُلَقَّبُ به، ولقد تلقّبُ به القاهرُ بنُ المعتمـــدِ فلم تطلْ أيامُهُ حتى خُلِعَ وسُمِلَتْ[1] عيناهُ.

ولُقِّبَ به القاهرُ صاحبُ الموصلِ، فسُمَّ فماتَ.

فعدَلَ عنه ولُقِّبَ بالظاهرِ.

كان شهماً كريماً شجاعاً، ذا نخوة، أقامَـــهُ اللهُ للنـــاسِ في ظروفٍ صعبةٍ وحرجةٍ، فلقد قُتِلَ المللكُ قطز، والمغولُ يتربّصون بالمسلمين، ويتحيّنون الفرصةَ المناسبةَ للانقضاضِ عليهم ليثأروا لأنفسِهِم لما وقعَ بهم يوم موقعةِ عينِ جالوت، ولا يمكـــــنُ أنْ تبقى البلادُ بدونِ ملكٍ يقودُها، ويشرفُ على أمورِها.

فحين بُويعَ السلطانُ الظاهرُ جلس على كرسي المُلـــــكِ، فحكم وعدَلَ، وقطعَ ووصلَ، وولّى وعزَلَ، فأحبَّـــهُ النـــاسُ، ودعَوا لهُ بالنصرِ والعزّةِ والظفرِ.

---

[1] سملت عيناه : قلعتا.

ولم يكدْ يتسلّمُ مقاليدَ الحكمِ على مصرَ والشامِ حتى جاءتْهُ الأخبارُ أنّ هولاكو قد أعدَّ جيشاً كبيراً ليستردّ الشامَ، ولينتقمَ من المسلمين الذين ألحقوا به وبجيشِهِ العارَ والهزيمةَ، فحيل بينه وبين ما يشتهي، ورجعَ جيشُهُ القهقرى ، ذلك أنهُ نهضَ إليهِ الهزبُر الكاسرُ، والسيفُ الباترُ، الملكُ الظاهرُ الذي قدم دمشقَ فورَ بلوغِهِ الخبرَ، يقودُ جيشاً كلُّهُ شوقٌ لمناجزةِ المغولِ وقهرِهم مرةً ثانيةً.

لقد عمل الظاهرُ بيبرسُ ما استطاعَ لسدّ الثغورِ، وحمايةِ الحدودِ، فلم يستطعِ التتارُ الاقترابِ منه، ووجدوا الأمورَ قد تغيّرَتْ، والسواعدَ قد شُمّرَتْ، والاستعدادات العسكرية والمعنويةَ قد أعدَّتْ، وعنايةَ اللهِ بالشامِ وأهلِهِ قد حَصَلَتْ، ورحمَتُهُ بهم قد نزلتْ ، فعند ذلك نكصوا على أعقابِهِم، وكرّوا راجعين القهقرى وكأنهم ذاقوا طعمَ الهزيمةِ والخسارةِ مرةً أخرى، والحمدُ للهِ ربّ العالمين.

وكان يومَ تسلّمَ ركنُ الدينِ الظاهرُ بيبرسُ مقاليدَ الحكمِ، الجمعةَ السادسَ من شهرِ ذي الحجةِ سنةَ ثمانٍ وخمسين وستمائةٍ.

معركة حمصَ الأولى

لم تستقرّ الأمورُ بالشامِ، ولم يَنْعَمْ أهلُها بالأمنِ والهدوءِ بعد معركةِ عينِ جالوتَ، فلم يمضِ أكثرُ من شهرٍ على هزيمةِ المغولِ وتقهقرِ جيوشِهم في بلادِ الشامِ حتى عادوا مرةً ثانيةً ليثأروا لهزيمتِهم، ويعيدوا اعتبارَهم، فسرعان ما عبروا الفراتَ ومضوا إلى حلبَ فدخلوها وفتكوا بأهلها، وفعلوا بهمُ الأفاعيلَ كعادتِهم، فلم يتمكنْ صاحبُها حسامُ الدينِ العزيزي أن يتصدّى لهم، ففرَّ بجنوده باتجاه الجنوبِ ماراً بحماةَ حيثُ أرسلَ إلى صاحبها المنصورِ الثاني بخبَرِهُ بالهجومِ المغولي المفاجئ.

كان المنصورُ الثاني صاحبُ حماةَ يتمتعُ بشخصيةٍ قويةٍ، ويتحلّى بنفسٍ أبيّةٍ، ونخوةٍ عربيةٍ، وشهامةٍ إسلاميةٍ، فلم يكدْ يتلقى هذا النبأ حتى عبّأ جنودَهُ ولحقَ بجيشِ حلبَ، فالتقى بهم

في حمصَ، فأرسلوا إلى صاحبها الأشرفِ، واتفقوا جميعاً على مناجزةِ العدوِّ مهما بلغتِ التضحيةُ، وأن يبذلوا ما بوسعهِم لصدِّ هجومِهِ وردِّهِ خائباً.

ولقد أعدّوا العدّةَ لذلك، ووضعوا خطةً عسكريةً لاستدراجِهِ إلى ظاهرِ حمصَ لشلِّ حركتِهِ ومنعِهِ من تحقيقِ أهدافِهِ.

أما المغولُ فلقد تابعوا زحفَهم بقيادة الأميرِ (بيدرا) وكان لا يقلُّ شراسةً ووحشيةً وبطشاً عن سلفِهِ كيتوبوقا.

ومضى جيشُ المغولِ بقيادةِ بيدرا حتى بلغَ مدينةَ (سلميةَ) وربَضَ في موضعٍ يقالُ له (وادي الخزندار) ليكون نقطةً لتجمعِهِم، ومنها اندفعتْ قواتُهم إلى حمصَ ليأخذوها.

وفي صبيحة اليومِ الخامسِ من شهرِ محرمٍ الحرامِ سنةَ تسعٍ وخمسين وستمِائةٍ كانتِ المعركةُ، وكان اللقاءُ بظاهرِ حمصَ قريباً من مسجدِ الصحابي الجليل خالدٍ بنِ الوليدِ ﷺ.

لم تكنِ المعركةُ متكافئةً، فالفارقُ في العددِ بين الجيشين كبيرٌ، حيثُ كان عددُ جندِ التتارِ ستةَ آلافِ مقاتلٍ، في حين لم يبلغْ عددُ جندِ المسلمينَ أكثرَ من ألفٍ وأربعمائةٍ مقاتلٍ، ولكنَّ المسلمين مع قلّة عددِهم وعدالةِ قضيتِهم وإيمانِهم في الدفاعِ عن بلادِهم، وردِّ العدوانِ عن أنفسِهم كانوا أكثرَ عدداً وعدّةً من عدوِّهم، فكان ذلك سبباً لصمودِهم في وجهِ العدوِّ وتحقيق النصرِ الكبيرِ عليه،وإلحاقِ الهزيمةِ النكراءِ بهِ، فقُتِلَ أكثرهم، ومَنْ سلمَ منهم فرَّ هارباً إلى نقطة تجمعِهم في وادي الخزندار، ثم انصرفوا إلى حلبَ يجرون أذيالَ الخيبةِ والهزيمةِ، متوجينَ بالذلّ والعارِ بعد أنْ فقدوا خيرةَ فرسانِهم وأكثر جنودِهم، وقُتِلَ قائدُهم بيدرا لا رحمه الله ولا عفا عنه.

وحين دخلوا حلبَ لم يجدوا ما يطفئون به نارَ حقدِهم، أو يُسكتون ثورة غضبِهم فاندفعوا نحو السكانِ الآمنين والعُزّلِ من السلاحِ، فسلّطوا السيوفَ على رقابِهم فقتلوا عدداً كبيراً

منهم، كما قتلوا من الغرباءِ خلقاً كثيراً صبراً بعد أن ضيّقــــوا عليهم، وأمسكوا عنهم الطعامَ والشرابَ.

بيدَ أن شدةَ المقاومةِ من جندِ المسلمين وغاراتِهم الكثيفـــةَ والمتكررةَ على جنودِ التتارِ وأماكنِ تمركزِهِم جعلهم يشـــعرون باليأسِ من احتلالِ بلادِ الشامِ، وأنهُ لا جــــدوى لإقامتِـــهم ، والهجماتُ الجريئةُ من المسلمين تنـــزلُ عليهم من كلِّ جهـــةٍ حتى أوجعتهم وآلمتهم، فكرهوا المقامَ بالشامِ فحملوا متاعَـــهم وغادروها مرتحلين إلى بلادِهم في الشرقِ، فاستقرّتِ الأمـورُ في البلادِ، وأمِنَ الناسُ شرَّ التتارِ وفسادَ التتارِ، وحمى اللهُ تعـــالى البلادَ والعبادَ من عاديةِ المعتدي، ومن طغيانِ الطاغيةِ، والحمـدُ للهِ ربِّ العالمين.

مقتلُ الملكِ الناصرِ

هو الملكُ الناصرُ صلاحُ الدينِ يوسفُ بنُ عبدِ العزيزِ محمّد ابنُ الظاهرِ غازي بنِ الناصرِ صلاحِ الدينِ الأيوبي.

ذلك أن هولاكو كان قد قبضَ عليه بعـــد هزيمتـــهم في معركةِ عينِ جالوتَ، وقال له : أنتَ أرسلتَ إلى الجيوشِ بمصـرَ حتى جاؤوا فاقتتلوا مع المغولِ فكسروهم ...؟

فاعتذرَ إليه، وذكر له أن المصريين كانوا أعداءَهُ، وبينـــهُ وبينهم خصومةٌ وشنآنٌ.

فأقالهُ هولاكو من إمارتِهِ، لكنَّ رتبتَهُ تدنَّتْ عندهُ، فلم يَعُدْ ذلك المكرمَ والمقرّبَ لديه.

وكان هولاكو قد وعدَهُ أنه إذا انتصر على المماليكِ وأخذ منهم مصرَ جعلهُ نائباً عنهُ في الشامِ، فلمّا كانَتْ وقعةُ حمـــصَ، وخسرَ التتارُ المعركةَ، وقُتِلَ أصحابُ هولاكو، وقـــائدُ حملتِـــهِ بيدرا، اشتدّ به الغضبُ ، ثم استدعاهُ وقال لهُ حانقاً مغضبـــاً : إنّ أصحابَكَ في العزيزيةِ أمراءُ أبيكَ، والناصريةُ من أصحـــابكَ قتلوا أصحابَنا ، ثم أمَرَ بقتْلِهِ.

فجعلَ يسألُهُ العفوَ، فلم يعفُ عنه حتى قتَلَهُ، وقتَـــلَ معـــهُ أخاهُ الظاهرَ علياً ولقد روي في كيفيةِ قتلِهِ ما يدلُّ على وحشيةِ

هولاكو وظلمِهِ، وعدمِ اشـــتمالِهِ علـــى ذرةٍ واحـــدةٍ مـــن الإنسانيةِ...!!

ذلك أنه أمر بأربعٍ من الشجرِ متباعدات بعضُـــــها عـــن بعضٍ، فجُمِعَتْ رؤوسُها بحبالٍ ثم رُبِطَتْ يداهُ ورجلاهُ كلٌّ يـدٍ ورجلٍ بشجرةٍ ثم أطْلِقَتِ الحبالُ، فرجَعَتْ كلُّ شجرةٍ بقـــوة هائلةٍ إلى مركزِها تحملُ عضواً من أعضائهِ، فإنّا للهِ وإنّا إليـــــه راجعون.

هذا ... وهولاكو وجنودُه يتمتعون برؤيةِ هـــذا المشـــهدِ الدامي، ويضحكون دون أنْ تتحركَ في نفسِ أحدِهِم ذرةٌ مـــن عاطفةٍ أو رحمةٍ أو إنسانيةٍ ...!!

ولقد كانَ الناصرُ رحمهُ اللهُ تعالى حَسَنَ السيرة، عـــادلاً في الرعيةِ، محباً للخيرِ، كثيرَ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ، فكـلنتِ الأرزاقُ والخيراتُ كثيرةً غزيرةً في زمَنِ حُكمِهِ.

كما كان ظريفاً جميلَ الشكلِ، ميّالاً للأدبِ وقولِ الشعرِ، وقد أوردَ له الشيخُ قطبُ الدينِ قطعةً صالحةً من شعرِه وهي جميلةٌ رائعةٌ لائقةٌ، ذكر ذلك ابنُ كثيرٍ، وليتني عثرتُ عليها...!!

خلافٌ بين هولاكو وبركه خان

بركه خان، هو ابنُ عمٍّ هولاكوخان، وقد وقعَ الخلافُ بسببِ أنَّ بركه خان أرسل إلى هولاكو يطلبُ منهُ نصيبَهُ مما فتحَهُ من البلادِ وأخذهُ من الأموالِ والأسرارِ كما جَرَتْ به عادةُ ملوكِهِم.

فلما جاءهُ كتابُ بركه خان غضبَ منهُ هولاكو غضباً شديداً، فمزَّقَ كتابَهُ، وقتلَ رسلَهُ، وأرسَلَ إليهِ يتوعّدُهُ.

فلما علم بركه خان بذلك نقمَ عليهِ وكاتبَ ركنَ الدينِ الظاهرَ بيبرسَ وعرضَ عليهِ أن يكونا معاً حرباً على هولاكو.

وهكذا ضربَ اللهُ قلوبَ بعضِهِم ببعضٍ، واختلَفَتْ كلمتُهم، وتفرَّقَ جمعُهم،وجعلَ اللهُ كيدَهم في نحرِهِم، وردَّ

سهامَهم إلى صدورِهم ، وكان ذلك من فضلِ اللهِ ونعمتِهِ على الإسلامِ والمسلمين.

وفي ذلك يقولُ اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ وكذلك نولّي بعضَ الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾[1] .

قيل في تفسيرِها: يسلّطُ اللهُ تعالى بعضَ الظلمةِ على بعضٍ فيهلِكُهُ ويذِلُّهُ.

وقال فُضيلُ بنُ عياضٍ : إذا رأيتَ ظالماً ينتقمُ من ظالمٍ فقِفْ، وانظر فيه متعجباً[1].

لقد كان هذا الخلافُ المفاجئُ بين قادةِ التتارِ وزعمائِهم سبباً لتوقفِ غاراتِهم على بلادِ الشامِ، لاسيّما وقد سبقَتْهُ هزيمةٌ كبرى هي معركةُ حمصَ، ثم كان أنْ شُغِلوا بخلافاتهم، الأمرُ الذي أتاح للظاهرِ بيبرس سلطانِ المماليكِ فرصةَ التفرغِ لقتالِ الأرمنِ والصليبيين في المناطقِ الشماليةِ والساحليةِ ، وذلك

---

[1] الآية ١٢٩ من سورة الأنعام.

[2] تفسير القرطبي.

بسببِ تحالفِهِم مع المغولِ وتمكينِهم من تطويقِ بلادِ الشامِ من الشمالِ.

لذلكَ نرى أنَّ الظاهرَ بيبرسَ قد صرفَ جُلَّ اهتمامِهِ إلى تأديبِ الأرمَنِ والصليبيين، وتوجيهِ الضرباتِ الموجعةِ إليهم، وتقليص ممتلكاتهمِ في الشمالِ والساحلِ، وفي الصفحات التاليةِ سنذكرُ بعضَ هذه الأعمالِ، إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

فتحُ البيرةِ[1] وقيسارية[2]

لقد بدأ السلطانُ الظاهرُ بيبرسُ أعمالَهُ العسكريةَ في الثغور الشماليةِ من بلادِ الشامِ، فجهّزَ أولاً جيشاً كبيراً أرسَلَهُ إلى ناحيةِ الفراتِ لطردِ التتارِ النازلين بالبيرةِ، فلم يكدِ الجيشُ المغوليُّ يسمعُ بقدومِ جيشِ المسلمين حتى غادرها وولّى هارباً ودخل الجيشُ الإسلاميُّ البيرة فاتحاً دون أن يحصلَ أيُّ قتالٍ،

---

(1) البيرة:قلعة حصينة بين حلب والثغور الرومية،قرب سُمَيْساط ولها رستاق واسع، وسُمَيْساط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الروم ولها قلعة يسكنها الأرمن.

(2) قيسارية : بلدٌ على ساحل بحر الشامِ تعدّ من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام.

فأمِنَ الناسُ على أنفسِهِم وأهلِهِم، وزالَ عنهمُ الخوفُ بعد كثرةِ الفسادِ والشرِّ والعدوانِ.

ثم خرجَ السلطانُ الظاهرُ يقودُ الجيشَ بنفسِهِ يقصدُ الساحلَ لقتالِ الفرنجِ في قيساريةَ، ففتحها في غضون ثلاث ساعات، ثم دخلَ قلعَتها فهدَمها وانتقل إلى غيرِها ليحقِّقَ نصراً جديداً وفتحاً مبيناً، فبدأ بأرسوفَ[1] ففتحها وقتلَ مَنْ بها من الفرنجِ، وانتقَلَتْ أخبارُ نصرِهِ فعمَّتِ البلادَ والعبادَ، وفرحَ المؤمنونَ بنصرِ اللهِ.

فتح صفد[2]

وتابعَ السلطانُ الظاهرُ بيبرسُ فتوحاتِهِ وانتصاراتِهِ حتى نزلَ صفد، فتحصَّنَ أهلُها فيها، فاستدعى المنجانيقَ من دمشقَ، فأحاطَ بها ولم يزلْ كذلك حتى افتتحها بحدّ السيفِ، وتسلّمها

[1] أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.

[2] صفد : مدينة من جبال لبنان، في جبل عامل مطلة على مدينة حمصَ بالشام.

في يومِ الجمعةِ ثامنَ عشرَ من شهرِ شوّال، ونزلَ أهلُها علـــى حُكمِهِ، وكانَ السلطانُ صلاحُ الدينِ الأيوبيُّ رحمهُ اللهُ تعالى قدِ افتتحها في شوالَ أيضاً سنةَ أربـــع وثمـــانينَ وخمســمِائةٍ، ثم استعادها الفرنجُ فانتزعها الظاهرُ منهم قهراً.

وكانَ في نفسِ الظاهرِ بيبرسَ منهم شيءٌ، فلمـــا فتحـــها استسلموا وطلبوا الأمانَ فأمّنَهم، ثم أجلسَ على سريرِ مملكتِـــهِ الأميرَ سيفَ الدينِ كرمونَ التتري، فجاءتْ رسُلُهم فخلعـــوهُ وانصرفوا وهم لا يشعرون أن الذي أعطاهم العهودَ بالأمانِ إنما هو الأميرُ الذي أجلَسَهُ على السريرِ، والحربُ خدعةٌ، وكـــانوا حينَ خلعوهُ مالتِ الداوية[1] على المسلمين بسيوفِهم وفعلوا بهمُ الأفاعيلَ القبيحة، ثم مكّنَ اللهُ منهم فأمرَ الســـلطانُ بضـــربِ رقابِهم، فقتلوا عن آخرهِم.

---

[1] الداوية : هم فرسان المعبد عند الصليبيين.

ثم بثَّ جنودَهُ وسراياهُ هنا وهناكَ في بلادِ الفرنجِ فاستولَوا على حصونٍ كثيرةٍ تقاربُ عشرين حصناً، وأسروا قريباً مـــن ألفِ أسيرٍ ما بين امرأةٍ وصبي وغنموا مغانم كثيرةً.

وقبل أنْ يغادرَ صفدَ أمَرَ بإعادةِ بناء أسوارِها وقلعتِها، وأنْ يُكتبَ عليها قولُهُ تعـــالى : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنَّ الأرضَ يرثُها عباديَ الصالحون﴾ [1] .

وقولُهُ تعالى :

﴿أولئك حزبُ اللهِ ألا إنَّ حزبَ اللهِ هـمُ المفلحون﴾ [2]. ﷺ .

فتحُ يافا[3] وغيرِها

ولم يزلِ السلطانُ الظاهرُ يدخلُ البلادَ، ويفتحُ الحصـــونَ، ويدكُّ العروشَ حتى انتهى إلى يافا فأخذها عنوةً بحدّ الســـيفِ،

---

[1] الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء.

[2] الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

[3] يافا : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين، بين قيسارية وعكا.

فاستسلمَ أهلُها، وفتحوا له قلعتَها فدخلها صلحاً، ثم أجلاهم منها وسَيَّرهم إلى عكا[1]، ومنها مضى قاصداً حصنَ الشقيفِ[2]، وفي بعض الطريق التقى برسولٍ من الفرنجِ يحملُ كتاباً من أهلِ عكا إلى أهلِ الشقيفِ يُعلمونهم بقدومِ السلطانِ الظاهرِ، ويحذرونهم منه بوجوبِ أخذِ الحيطةِ والحذرِ، ففهمَ السلطانُ كيف يدخلُ البلدَ وكيفَ يستولي عليها، وعرف من أين تؤكَلُ الكتفُ، فاستدعى رجلاً من الفرنج فأمره أن يكتبَ نيابةً عنه على ألسنتِهم إلى أهلِ الشقيفِ، يحذرُ الملكَ من الوزيرِ والوزيرَ من الملكِ، يريدُ بذلكَ أن يوقعَ بينهما لتختلفَ كلمتُهما، وكما يُقالُ: الحربُ خدعةٌ.

فلما قرؤوا الكتابَ اختلفَتْ كلمتُهم، فلم يأمنْ أحدُهُم الآخرَ، فجاءهُمُ السلطانُ وهم كذلك فحاصرهم، ورماهُم

---

(1) عكا: مدينة حصينة كبيرة، على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين.

(2) الشقيف: حصن وثيق بالقرب من صور. انظر جميع ذلك في معجم البلدان.

بالمجانيق ، فأذعنوا للصلح واستسلموا ، ثم أجلاهم إلى صورٍ (١) ، ومنها إلى طرابلس (٢) ، ثم إلى حصنِ الأكراد(٣) ففتحه ، فجاءه أهل الحصنِ من الفرنجِ بالهدايا والتحفِ ، فأبى أن يقبلَ منها شيئاً وقال لهم : أنتم قتلتم جندياً من جيشي وأريدُ ديتَه مائة ألف دينار ، فدفعوها إليه ، ثم انصرف عنهم فنزل على حمص ، ومنها إلى حماة ، ثم إلى أفامية .(٤)

---

(١)صور: مدينة مشهورة كانت من ثغور المسلمين ، وهي مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكف على الساعد ، وهي حصينة جداً من أعمال فلسطين بينها وبين عكا ستة فراسخ ، وتقع إلى الشرق منها .

(٢) طرابلس : مدينة مشهورة من أعمال لبنان أشهر من أن تعرف .

(٣) حصن الأكراد : هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب ، وبينه وبين حمص مسيرة يوم ، قال ياقوت : وكان بعض أمراء الشام قد بنى في موضعه برجاً ، وجعل فيه أقواماً من الأكراد طليعة بينه وبين الفرنج وأجرى لهم أرزاقاً ، ثم خافوا على أنفسهم في غارة فجعلوا يحصنونه إلى أن صار قلعة حصينة منعت الفرنج عن كثير من غاراتهم .

(٤) أفامية : مدينة قديمة حصينة من سواحل الشام من أعمال حمص ، ولعل الصواب من أعمال حماة (انظر معجم البلدان) .

فتحُ أنطاكيةَ[1]

ثم غادرَ الظاهرُ بيبرسُ أفاميةَ ليلاً ومضى قاصداً إنطاكيـــةَ، وهي من أهمّ الثغورِ الشاميةِ، نزلها السلطانُ الظـــاهرُ في أوّلِ شهرِ رمضانَ، فخرجَ إليهِ أهلُها يطلبونَ منه الأمانَ، وشــرطوا عليه شروطاً لم يقبلْها، وردّهم خائبين، وصَمَّمَ على فتحِـــها، فضربَ عليها حصاراً شديداً، ثم فتحها يومَ السبتِ الرابعَ عشرَ من شهرِ رمضانَ المباركِ بحولِ اللهِ وقوتِهِ، ونصرِهِ وتأييدِهِ، فلما دخلها وجدَ فيها من أسرى المسلمين عدداً كبيراً وجميعُهم مـن أهلِ حلبَ، وقد كان صاحبُها وصاحبُ طرابلسَ مـــن أشــدِّ الناسِ عداوةً للإسلامِ وأكثرِهم أذيّةً للمسلمين، لاسيما حـــين ملكَ التتارُ حلبَ وفرَّ منها الناسُ، فكانَ هذانِ اللعينانِ يقبضان

[1] أنطاكية : مدينةٌ قديمةٌ مشهورة، تقع إلى الغرب من مدينة حلب، وهي من أعيان البـــلاد وأمهاتها موصوفة بالنـــزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة الماء وكثرةِ الفواكـــه وســـعةِ الخير، وهي اليوم تحت الاحتلال التركي، وبينها وبين حلب يوم وليلة . معجم البلـــدان بتصرف.

على الهاربين من حلبَ، ثم يسلمانِهم إلى التتارِ، أو يحبسانهم في سجنِ أنطاكيةَ وغيرها.

وبذلك استطاعَ الظاهرُ بيبرس أنْ يتغلّبَ على الفرنجِ الذينَ كانوا عوناً للتتارِ وعيوناً لهم على المسلمينَ بما قدّموه لهم من تسهيلات مكنتهُم من إحكامِ الطوقِ على بلادِ الشامِ من الشمالِ والشّمالِ الغربي.

كما نجحَ في تجريدِهم من بعضِ الحصونِ كما مرّ معنا مفصلاً، وتضييقِ رقعةِ نفوذِهم في الساحل والشمال.

عودة الظاهرِ إلي دمشقَ

بعد جولةٍ طويلةٍ قام بها السلطانُ الظاهرُ في البلادِ حقّقَ فيها انتصارات ساحقةً وفتوحات كثيرةً لو استقصيناها جميعاً لطالَ بنا البحثُ، واستغرقَ وقتاً طويلاً، ولكن حسبُنا ما ذكرنا.

بعد هذه الجولةِ الطويلةِ عادَ الظاهرُ إلى دمشقَ، ولم يكـدْ يستريحُ من رحلتِهِ الشاقّةِ حتى أتَتْهُ رسلٌ من أبغا ملكِ التتـارِ، وكانَ أبغاخان هذا قدْ قامَ بالملكِ بعدَ أبيهِ هولاكوخان لا رحمهُ الله ولا عفا عنهُ، ومع هؤلاءِ الرسلِ مكاتباتٌ ومشافهاتٌ، مـن جملتها ما يقولُهُ أبغاخان:

(أنتَ مملوكٌ بعتَ بسيواس فكيف يصلحُ لكَ أنْ تخـالفَ ملوكَ الأرضِ ...؟)

واعلم أنك لو صعدتَ إلى السماءِ أو هبطـتَ إلى الأرضِ ما تخلصتَ مني، فاعمَلْ لنفسِكَ علـى مصالحـةِ السـلطان أبغاخان).

فلم يهتمّ الظاهرُ لهذا الكتابِ، ولم يحفِلْ به، ولم يضعُـفْ أمامَ تهديداتهِ ونبراتِهِ الحادة والمسمومةِ، وبدا علـى السـلطان الهدوءُ والوداعةُ، وأجابَهُ بأتمِّ جواب وأشجعِهِ، وقالَ لرسـلِهِ: أخبروهُ أنّي من ورائِهِ بالمطالبةِ، ولا أزالُ حتى أنتزعَ منهُ جميـعَ البلادِ التي استحوذَ عليها من بلادِ الخليفـةِ، وسـائرِ أقطـار الأرض.

معركةُ البيرةِ[1] الثانيةُ

جاءتِ الأخبارُ إلى السلطانِ الظاهرِ أنَّ جيشاً كبيراً من التتارِ قد تجمَّعَ لهُ عند الفراتِ، فمضى إليهم بنفسهِ يقودُ الجيشَ، ومعهُ من الأمراءِ سيفُ الدينِ قلاوون وبدرُ الدينِ بيسري وغيرُهما، فلمّا وصلَ إلى الفراتِ خاضَهُ بنفسِهِ وأمرَ الجندَ أنْ يخوضوا معهُ، فخاضوا جميعاً حتى بلغوا الضفةَ الأخرى، وكانَ أولَ مَنِ اقتحمَ الفراتَ فخاضَهُ الأميرُ سيفُ الدينِ قلاوون، والأمير بدرُ الدينِ بيسري، ثم تبعهما السلطانُ، ثم انقضّوا على جنودِ التتارِ كالأسودِ فاشتبكوا معهم في معركةٍ حاميةِ الوطيسِ انتهَتْ بهزيمةِ التتارِ ، فتبعوهم إلى ناحية البيرةِ وكانت محاصرةً بطائفةٍ أخرى من التتارِ، فلما رأوا أصحابَهم هاربين أمام جندِ المسلمين هربوا وتركوا أموالَهم وأثقالَهم.

ودخلَ السلطانُ الظاهرُ في أبهةٍ عظيمةٍ يعلوهُ النصرُ والعزةُ والفخارُ، فكانَ نصراً مؤزّراً ويوماً مشهوداً.

---

[1] تقدم تحديد موقعها.

لقد كان خوضُهُمُ الفراتَ آيةً عظيمـــةً أجراهـــا اللهُ ﷻ تأييداً لهم كما أيّدَ بها نبيّهُ موسى ﷷ ، وأصحابَ رسولِ الله ﷺ حين خاضوا النهرَ مرتين : مرةً مع سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ ﷺ يومَ معركةِ القادسيةِ .

ومرةً أخرى مع العلاءِ بنِ الحضرمي ﷺ يوم لحق المرتدّيـن إلى دارينَ[1] فخاضَ البحرَ وخاضَ أصحابُهُ معهُ وكأنهم يمشون على أرضٍ رمليةٍ عليها قليلٌ من الماءِ لا يكادُ يغمـرُ أخفـافَ الإبلِ، ولا يصلُ إلى ركبِ الخيلِ.

ولقد ذكر أحدُ المقاتلين وكان من الذين حضروا الحادثـةَ وشاهدها بعينِهِ، وهو عفيفُ بنُ المنذرِ الذي خَلَّدَ ذكراها بهذين البيتين :

ألم تـرَ أنّ اللهَ ذلّـلَ بحـرَهُ   وأنزلَ بالكفارِ إحدى الجلائلِ

دعونا إلى شقِ البحارِ فجاءنا   بأعجبَ من فلقِ البحارِ الأوائلِ[2]

وفي خوضِ السلطانِ الظاهرِ الفراتَ بجيشِهِ قال القـاضي شهابُ الدينِ محمودٌ الكاتب وهو يخلدُ هذه الحادثةَ العظيمةَ:

---

[1] دارين : قرية بالبحرين يجلبُ إليها المسك من الهند، والنسبة إليها داريٌّ.

[2] انظر تفاصيل الحادثة في كتابي (عمالقة الإسلام).

سِرْ حيثُ شئتَ لك المهيمنُ جـارُ واحكُمْ فطوعُ أمـورِكَ الأقـدارُ
لم يبقَ للدينِ الـذي أظهرتَـهُ ياركنَـهُ عنـد الأعـادي نـارُ
لمّا تراقصَتِ الـرؤوسُ تحركَتْ من مطرباتٍ قسيِّكَ الأوتـارُ
خضتَ الفراتَ بعسكرٍ أفضى بـه موجُ الفراتِ كما أتـى الأخبـارُ
حملَتْكَ أمواجُ الفراتِ ومَـنْ رأى بحـراً سـواكَ تقلُّـهُ الأنهـارُ
وتقطّعتْ فرقاً و لم يـكُ طودَهـا إذ ذاكَ إلاّ جيشُـكَ الجـرارُ

مرضُ ركنِ الدينِ الملكِ الظاهرِ بيبرس

بعد رجوعِ السلطانِ الظاهرِ بيبرس من بلادِ الرومِ وقد كسَرَ شوكةَ التتارِ وأذلّهم وألحقَ بهمْ هزائمَ كثيرةً، وكبّدهم خسائرَ جسيمةً في الرجالِ والعتادِ والأموالِ، وأدّبَ الرومَ وقلّم أظافرَهم وأقصاهُم عن بلادِ المسلمين، ورجع مؤيداً بنصرِ اللهِ فدَخَلَ دمشقَ وكان يومُ دخولِهِ يوماً مشهوداً ، ثمّ جاءتْهُ الأخبارُ أنّ أبغاخان قد أعدَّ العدّةَ لمنازلتِهِ.

فاستعدّ له السلطانُ الظاهرُ فعبّأ الجنودَ، وعيّنَ الأمراءَ، ثم لم يلبَثْ أنْ جاءتْهُ الأخبارُ بأنّ أبغاخان قد رجع إلى بلادِه، وكفى اللهُ المؤمنين القتالَ.

وجلسَ السلطانُ الظاهرُ ليستريحَ من وعثاءِ السفرِ ومجاهدةِ أعداءِ الله وحمايةِ البلادِ والعباد .

فَبينَما هو في إحدى ليالي السمرِ إذ أخذ كأساً عن طريق الخطأِ، وكانَ فيهِ بقيةٌ من سُمٍّ فشربهُ، ومن فورِه اشتكى ألماً شديداً في بطنِهِ، مرضَ على أثرِه أياماً ثم ماتَ رَحمهُ الله تعالى.

صفاتُهُ

كان رحمهُ اللهُ تعالى شهماً شجاعاً، عاليَ الهمّةِ، ذا نجدة ومروءة، مقداماً جسوراً ، مهتماً بأمور الدولةِ، مشفقاً على الإسلامِ، غيوراً على البلاد، عادلاً في الرعيةِ، منصفاً للمظلومين، آخذاً على يدِ الظالمِ، محباً للجهادِ في سبيلِ الله قوياً على أعدائهِ، حازماً في أمورهِ ولا يُصانعُ ولا يمالئُ ولا يلينُ إلاّ للحق.

أَصدرَ مرسوماً ملكياً بمنعِ تعاطي الخمور، وأمرَ بإراقتها، وحارب الفسادَ، وأمَرَ بإغلاقِ دور البغاء، وكتبَ إلى جميع البلادِ بذلك، وأمرَ بمراقبةِ المومسات حتى يتزوجْنَ وأسقطَ المكوسَ إلى غيرِ ذلك من الحسناتِ والإيجابيات.

رويَ أنه كان يقودُ جيشَهُ إلى مصرَ، فلما كان ببعضِ الطريقِ عند خربةِ اللصوصِ، تعرّضَتْ له امرأةٌ فذكرتْ له أنَّ ولدَها دخلَ مدينةَ صور، وأنّ صاحبَها الصليبيَّ غدر به وقتلَهُ،

وأخذَ مالَهُ، فأدار السلطانُ رأسَ فرسِهِ ومضى إلى صور، فشنَّ عليها غارةً شديدةً، وقتلَ من الصليبيين عدداً كبيراً، وأسَرَ مثلَهُم، فأرسَلَ إليه صاحبُها يسألهُ : ما سببُ هذه الغارة ...؟

فذكرَ له غدرَهُ ومكرَهُ بالصبي وكيف قَتَلَهُ وأخذَ مالَهُ .

هكذا فلْتَكُنِ الملوكُ ...!!

وهكذا فلْيَكُنْ القادةُ ...!!

وهكذا فلْيَكُنِ العدلُ والقصاصُ، وإنصافُ المظلومين، والأخذُ على يدِ الظالمِ ...!!

وفاتهُ

توفيَ رحمهُ اللهُ تعالى يومَ الخميسِ في السابعِ والعشرينَ من شهرِ محرمٍ الحرامِ سنةَ ستٍ وسبعين وستِمائةٍ بعد صلاةِ الظهرِ، وقد صلّى عليه الأمراءُ والقادةُ والعلماءُ سراً، وكتموا موتَهُ عنِ الناسِ، فلم يعلمْ بموتِهِ جمهورُ الشعبِ، إلى أن كان العشرُ الأخيرُ من شهرِ ربيعٍ الأولِ، وجاءتِ البيعةُ لولدِهِ السعيدِ من مصرَ، فحزنَ عليهِ الناسُ حزناً شديداً، ودعَوا له بالعفوِ والرحمةِ والمغفرة.

ودُفِنَ بالتربةِ التي بناها ولدُهُ له وهي دارُ العقيقي تجاه العادليةِ الكبيرةِ.

ذكرُ تملُّكِ سيفِ الدينِ قلاوونَ السلطنةَ

بعدَ وفاة السلطان الظاهرِ بيبرس كانتِ البيعةُ لابنِهِ الملكِ السعيدِ، ولكنَّهُ خلِعَ بعدَ ذلكَ بقليلٍ، وكان عمرُهُ حين بويعَ له تسعَ عشرةَ سنةً، وكان من أجملِ الشّبابِ، وأكملِ الرجالِ وأتمهم.

ثم بويعَ لأخيه العادلِ سلامش في أوائل سنةِ ثمان وسبعين وستمائةٍ ثم خُلِعَ أيضاً بعدَ ثلاثة أشهرٍ لصغرِ سنِّهِ، وتسلّمَ مقاليدَ الحكمِ بعده سيفُ الدينِ قلاوونَ.

بيدَ أنّ الأميرَ قلاوون لم يكدْ يجلسُ على عرشِ السلطنةِ، ويتسلَّم مقاليدَ الحكمِ في البلادِ حتى بدأتِ المنغصاتُ تنهالُ عليه، وتعكّرُ صفوَ العيش، وحلاوةَ الملكِ.

لقد رُفِعَتْ إليه الأنباءُ أنَّ نائبَهُ في دمشقَ سنقَرَ الأشقرَ قد أعلن عصيانَهُ، فلم يرضَ بتوليةِ قلاوون، وكأنَّهُ داخَلَهُ حسدٌ، لاعتقاده أنّهُ كان أقربَ منه عندَ الملكِ الظاهرِ وأعظمَ، لذلك خرج مع جماعةٍ من الأمراءِ والجندِ مشاةً قاصدين بابَ القلعةِ، فدخلوها واستدعى الناسَ، فاجتمعوا إليه وبايعوهُ على السلطنةِ، ولُقّبَ بالملك الكاملِ.

واستمرّ على ذلك عدةَ أشهر، فأرسلَ إليهِ السلطانُ قلاوون مَنْ يقنعُهُ بالبيعةِ وحقنِ الدماءِ، ولكنهُ أبى، فأرسلَ إليهِ جيشاً لإرغامِهِ على التراجعِ عن قرارِهِ ولكنّهُ أبى وقاتلَ جيشَ قلاوون، ودارتْ بينهما عدةُ معاركَ فبينما هم كذلك يقتتلون على الملكِ إذ أقبلَتْ عليهم جحافِلُ التتارِ حين سمعوا بخلافِهم وتفرّق كلمتهم، فهربَ الناسُ من بينِ أيديهم، وأخلَوا لهمُ الطريقَ، فدخلوا حلب فقتلوا ونهبوا وارتكبوا مجازرَ كثيرةً وهم يعتقدون أنَّ جيشَ سنقرَ الأشقرَ سوف يباركُ مجيئهم ويكونُ معهم على المنصورِ قلاوون، فوجدوا الأمرَ بخلاف ذلك.

ذلك أن المنصور كتب إلى سنقر الأشقر: إنَّ التتارَ قد أقبلوا إلى المسلمين، والمصلحةُ أن نتفقَ عليهم لئلا يهلكَ المسلمون بيننا وبينهم، وإذا ملكوا البلادَ لم يدَعوا منّا أحداً.

فكتبَ إليهِ سنقرُ بالسمعِ والطاعةِ، وبرزَ من حصنهِ فخيّمَ بجيشِهِ ليكونَ على أهبةٍ متى طُلِبَ أجاب، ونزلت نوابُهُ وجنودُه من حصونِهم وهم مستعدّون لقتالِ التتارِ.

وبعد ثلاثةِ أيّامٍ أُخبروا أنّ التتارَ قد رجعوا من حلب إلى بلادهم، حين بلغَهُم عنِ اتفاقِ كلمةِ المسلمين، وذلك فضلُ الله.

فكانت أنباءُ هجومِ التتارِ باتجاه الشامِ عاملاً هاماً في تقريرِ الصلحِ وإخمادِ نارِ الحربِ بين المقتتلين، وإلغاءِ سنقرَ الأشقرِ عصا الطاعة. ولمِّ الشملِ، وتوحيدِ الصفِ، وجمعِ الكلمةِ.

معركةُ حمصَ الثانية

بعد وفاةِ الظاهرِ بيبرس وما أعقبها من خلافاتٍ وصراعاتٍ دمويةٍ على السلطةِ استأنفَ المغولُ نشاطَهُمُ العسكريَّ على الأطرافِ الشرقيةِ والشماليةِ من بلادِ الشامِ.

ولقد توجوا هذا النشاطَ بهجومٍ كبيرٍ كاسحٍ وبأعدادٍ هائلةٍ لم يسبقْ لها مثيلٌ، وكانَ ملكُهم أبغاخان بنُ هولاكو على رأسِ هذا الجيشِ.

لم يكنِ المنصور قلاوون في غفلةٍ عن هذا الهجومِ المغولي، ولم يكنْ ليسكتَ عنهُ فخرجَ من دمشقَ في أواخرِ جمادى أثناءَ صعودِ الخطباءِ إلى المنابرِ يومَ الجمعةِ تبرّكاً بدعائِهم وتأمينِ المصلّين، ومضى المنصورُ قلاوون يطوي البيداءَ المترامية حتى بلغَ مدينةَ حمصَ، فكتبَ إلى الملكِ الكاملِ سنقرَ الأشقرِ يطلبُهُ

إليهِ نجدةً، فلمّا قدِمَ إليه أكرمَهُ واحترمَهُ ولم يظهرْ منهُ شيءٌ من اللومِ أوِ العتابِ.

فلمّا تكاملتِ الجيوشُ استعداداً وتعبئةً خرجوا للقاءِ العدوِّ مخلصين النيةَ والعملَ للهِ، ووضعوا المصاحفَ بين أيديهم يدعون اللهَ تعالى ويبتهلونَ إليهِ طالبين العونَ والنصرَ.

وفي صبيحةِ يوم الخميسِ الرابع عشرَ من شهرِ رجب التقى الجمعانِ، وتواجهَ الخصمانِ عندَ طلوعِ الشمسِ في المنطقةِ الممتدّةِ من مشهدِ خالدِ بن الوليدِ ﷺ إلى الرستن.

وقد بلغَ عددُ جيشِ التتارِ مائةَ ألفِ فارسٍ، في حين لم يكنْ جيشُ المسلمين يبلغُ نصفَ هذا العدد.

بدء القتال

وقفَ كلٌّ من الفريقين يحدقُ بالآخرِ، ثم اندفع الفرسانُ فاشتبكوا في معركةٍ قويةٍ وضاريةٍ، فاقتتلوا قتالاً عظيماً لم يُرَ مثلُهُ من أعصارٍ متطاولةٍ، وأبدى التتارُ في أولِ الأمرِ بطولةً

خارقةً فكسروا ميسرةَ جيشِ المسلمين، واضطربتِ الميمنةُ وكادَتْ تنكسرُ أيضاً، وكُسِرَ جناحُ القلبِ الأيسرِ، ودارتِ الدائرةُ على المسلمين فهرَبَ أكثرُهم، والتتارُ في آثارِهم حتى وصلوا إلى بحيرةِ حمصَ، ومنهم مَنْ بلغ حمصَ فإذا هي مغلقةُ الأبواب لم تفتحْ لأحدٍ من الهاربين أبوابها، وكأنها تقولُ لهم : ياحسرةً على هؤلاءِ المقاتلين ...!!

هذا ... وكان السلطانُ المنصورُ قلاوون قد ثبت في أرضِ المعركةِ ثباتاً مشرفاً ومعهُ عددٌ من المقاتلين.

نظر أمراءُ الجندِ فرأوا أنَّ الدائرةَ على المسلمينَ، وأنّهم إنْ لم يتصرّفوا بحكمةٍ وعقلانيةٍ كانتِ الهزيمةُ محققةً لاريبَ فيها، وكان هلاكُهُم جميعاً، وهلاكُ الإسلامُ والمسلمين.

فلجؤوا إلى خطةٍ ذكيةٍ لإنقاذِ الموقفِ، فحملوا حملاتٍ متعددةً صادقةً وشدّوا جميعاً شدةَ رجلٍ واحدٍ، ولم يزالوا يتابعون الحملةَ بعد الحملةِ بصدق وإخلاصٍ وثباتٍ حتى تغيّرَ وجهُ المعركةِ ومالَ لصالحِ المسلمينَ، وأنزلَ اللهُ نصرَهُ، وهزمَ الأحزابَ وحدَهُ بحولِهِ وقوتِهِ .

خاتمة في ذكر نهاية المعركة

هذا ... وكان أبغاخان متخفياً بين جندِه، والقيـــادةُ في ظاهرِ الأمرِ لأخيهِ منكو تمرين بنِ هولاكو الذي جرح في هـــذه المعركةِ جرحاً بليغاً، وانقضّ الأميرُ عيسى بنُ مهنّا على قلـــبِ الجيشِ المغولي وصادمهم بقوةٍ فائقةٍ ومعهُ عددٌ من المقـــاتلين الفدائيين، فاضطرب جيشُ التّتارِ وظنّوا أنّ الأمـــدادَ جـــاءَتْ للمسلمين، فوقع الخوفُ في قلوبِهم وتمتِ الهزيمةُ، وقُتِـــلَ مـــن التتارِ مقتلةٌ عظيمةٌ جداً.

ولما رجعَ جنودُ التتارِ الذين طاردوا الهاربين من المســـلمين وجدوا أصحابَهم قدْ هرَبوا، وتحـــولَ نصرُهـــم إلى هزيمـــةٍ، والمسلمون في آثارِهم يطاردونهم، يقتلون فريقـــاً ويأســـرون فريقاً.

هذا ... والسلطانُ المنصورُ ثابتٌ في مكانـــهِ في وســـطِ المعركةِ يدفعُ جموعَ التتارِ الذين تكالبوا عليه وأحاطوا بهِ مـــن كلِّ جهةٍ، وليس معهُ سوى ألفِ فارسٍ، فطمعوا فيه وكأنّـــهم يعرفون أنّهُ السلطانُ، فثبت لهم ثباتاً عظيماً ومشرفاً حتى هربـوا بين يديه، فلحقهم هو ومَنْ معه من الفرسانِ الشجعانِ فقتلـــوا أكثرَهم، فكانَ ذلك تمامَ النصرِ والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

وانتهتِ المعركةُ الخالدةُ قبل غروبِ الشمسِ من نفسِ اليومِ، وهربَ مَنْ بقيَ من التتارِ وافترقوا فرقتين: فرقةٌ هربَتْ في الصحراءِ إلى سلميةَ، وفرقةٌ هربَتْ إلى حلبَ والفراتِ، فأرسَلَ السلطانُ في آثار الفرقتين مَنْ يتبعُهم ويستأصِلُهم وانتقلَتْ بشائرُ النصرِ إلى دمشقَ وسائرِ بلادِ المسلمين،فازدانتِ البلدانُ في كل مكانٍ، وأوقدتِ الشموعُ، وفرحَ المؤمنونَ بنصرِ اللهِ.

وفي اليوم الثاني والعشرين من شهرِ رجب دخل السلطانُ قلاوون وجيشُهُ المظفرُ وبين أيديهمُ الأسارى، وقد رفع الجنودُ رماحَهم تحملُ رؤوسَ القتلى، وكان يوماً عظيماً ومشهوداً، والناسُ يستقبلون الجنودَ المنتصرين بالهتافات الرائعةِ، والأناشيدِ الحماسيةِ، والأدعيةِ الصادقةِ.

أما التتارُ فقدْ هربوا وتفرّقوا في الصحراءِ وهم في أسوأ حالٍ، يُتَخَطّفون من كلِّ مكانٍ، ويقتلون من كلِّ فجٍ، ويتيهون في كلِ جهةٍ حتى ماتَ أكثرهم جوعاً وعطشاً وهم تائهون في البيداءِ، ومن نجا منهم وبلغَ الفراتَ ماتَ غرقاً، وتلقاهم أهلُ البيرةِ فقتلوا منهم وأسروا الكثيرين، وجيوشُ

المسلمين في آثارِهم يطاردونهم حتى أراحَ اللهُ منـــهمُ العبــادَ والبلادَ.

ولقد جاءَ في بعضِ الرواياتِ أنَّ قتلى المسلمين مع شدّةِ هذه المعركةِ وضراوتِها لم يبلغْ مائتي شهيدٍ.

فإذا كان المؤرّخون يعدون معركةَ عينِ جالوتَ من أهمّ معاركِ المسلمين وأعظمِها في أيّامِهم، فإنّ معركةَ حمصَ الثانيـةَ لاتقلُّ عنها من حيثُ الأهميةُ والنتيجةُ، بل لربما كانَتْ أعظـــمَ منها وأهمَّ ...!!

ذلك أنها حطّمَتْ أحلامَ المغولِ في متابعةِ غزوهِم لبـلادِ الشامِ، ويضافُ إلى ذلك أمرٌ هـــامٌّ جــداً هــو أن قــائدَهم منكوتمرين بنَ هولاكو قد مات كمداً من أثر عارِ الهزيمـــةِ، ثم لحق بهِ أخوهُ أبغاخان ملكُ التتارِ بعد أقلّ من شهرين.

ولقد عدَّ بعضُ المسلمين موتَهُما من جملةِ هذا الفتـــحِ العظيمِ، كما ذكره أبو الفداءِ في تاريخهِ.

تمتِ الرسالة والحمد لله رب العالمين

وآخر دعواهم أن الحمدُ للهِ ربّ العالمين

ثبت المراجع

اعتمدنا في إعداد هذه المجموعة على المراجع التالية:

١- القرآن الكريم
٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري
٣- صحيح مسلم بشرح النووي
٤- تفسير القرطبي
٥- تفسير ابن كثير
٦- البداية والنهاية لابن كثير
٧- تاريخ الطبري
٨- طبقات ابن سعد
٩- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر
١٠- الاستيعاب لابن عبد البرّ
١١- تاريخ ابن خلدون
١٢- الكامل في التاريخ لابن الأثير
١٣- نفح الطيب للمقرّي
١٤- وفيات الأعيان لابن خلكان
١٥- مروج الذهب للمسعودي
١٦- معجم البلدان لياقوت الحموي
١٧- لسان العرب لابن منظور
١٨- المصباح المنير للفيومى
١٩- شذرات الذهب لابن العماد
٢٠ صفة الصفوة لابن الجوزي
٢١- الفَرْق بين الفِرَقِ - عبد القاهر بن طاهر البغدادي

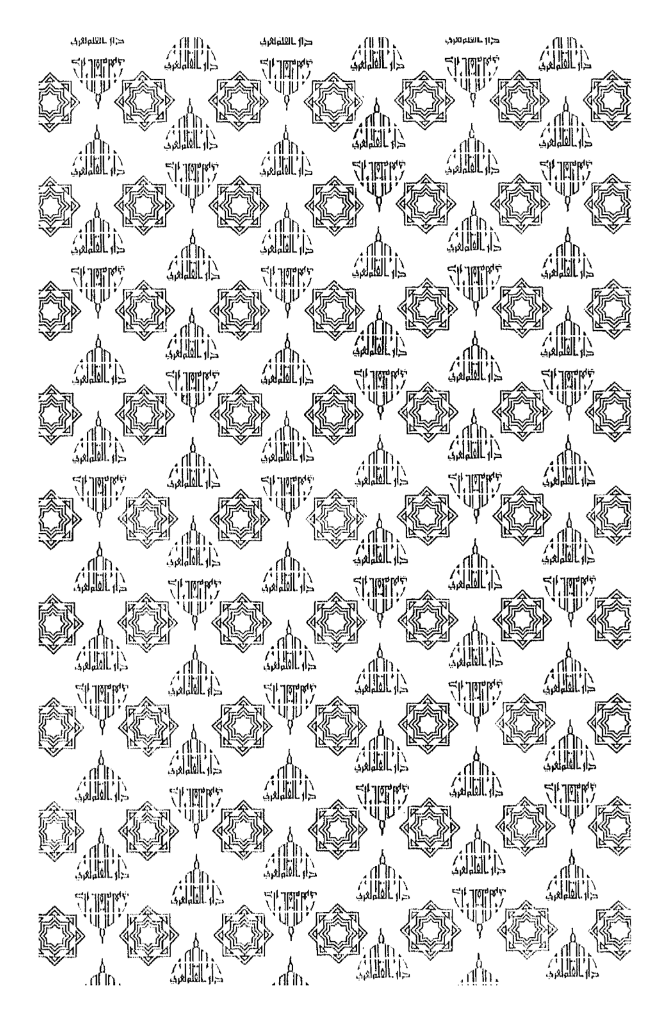
٢٢- الملل والنحل للشهرستاني
٢٣- العالم الإسلامي لعمر رضا كحالة
٢٤- أيام العرب في الجاهلية والإسلام لأبي الفضل إبراهيم
٢٥- الفتوحات الإسلامية لأحمد زيني دحلان
٢٦- سيرة صلاح الدين لابن شدّاد
٢٧- الوثائق السياسية والإدارية
٢٨- وثائق الحروب الصليبية للدكتور محمد ماهر حمادة
٢٩- فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس
٣٠- شرح ديوان أبي تمام للمقريزي
٣١- مجلة التراث العربي العدد (٦٢)
٣٢- مجلة العربي
٣٣- شرح المعلقات السبع للزوزني
٣٤- تاريخ الخلفاء للسيوطي
٣٥- عمالقة الإسلام للمؤلف
٣٦- تاريخ أبي الفداء - لأبي الفداء
٣٧- سيرة ابن هشام - لابن هشام
٣٨- ديوان الهذليين
٣٩- الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العـــام - للأســتاذ علــي علي منصور

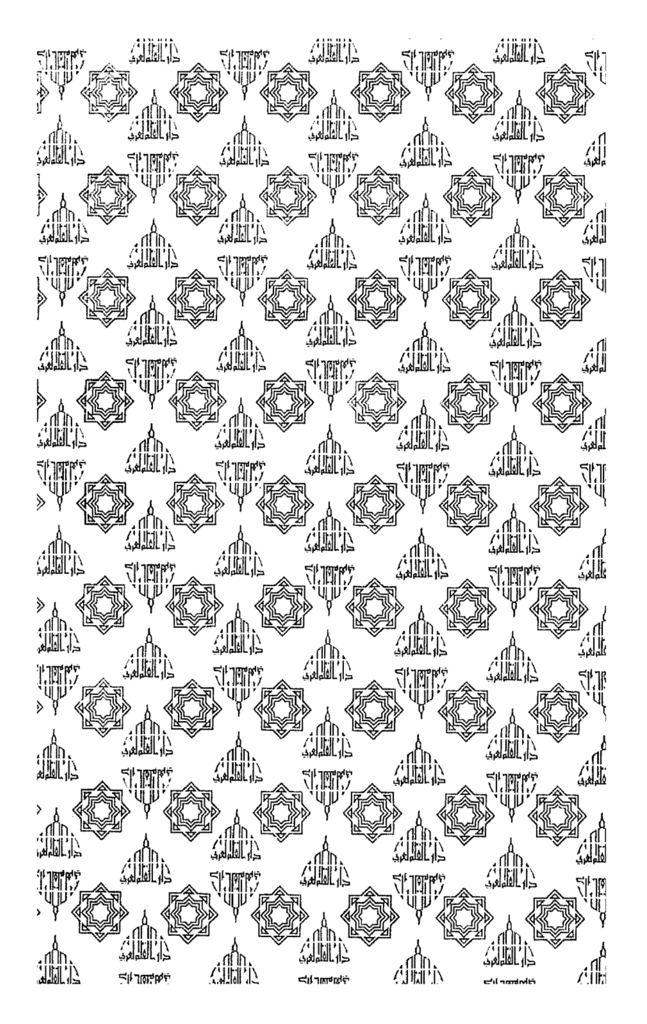
الفهرس

	رقم الصفحة
معركة عين جالوت	٣
تمهيد	٣
ظهور جنكيز خان	٣
بدء زحف المغول على العالم الإسلامى	٥
الغزو المغولي لبغداد	٨
مقتل الخليفة وسقوط بغداد	١١
نهاية ابن العلقمى	١٥
التعريف بالمستعصم أمير المؤمنين	١٨
العالم الإسلامى إبان الغزو المغولي	١٩
بدء حكم المماليك لمصر	٢٠
١- عز الدين أبيك	٢٠
٢- شجرة الدر	٢٣
٣- الملك المظفر قطز	٢٥
تواضعه وثقته بالله ورسوله	٢٦
استمرار الزحف المغولي وسقوط حلب	٢٨
رسالة من هولاكو يهدد فيها حكام حلب	٣٠
سقوط دمشق	٣٣
اجتماع الشامين والمصريين تحت قيادة قطز	٣٨
مصير الملك الناصر صاحب دمشق	٣٩
رسل هولاكو بين يدي المظفر قطز	٤٠
المظفر قطز يقود الجيش إلى عين جالوت	٤٣
بدء القتال	٤٤

رقم الصفحة

مواقف بطولية ٤٦
شجاعة الملك المظفر قطز وبلاؤه ٥٠
مقتل كيتو بوقا قائد جيش المغول ٥١
نتائج معركة عين جالوت ٥٤
مقتل الملك المظفر قطز ٥٨
ذكر تملك الظاهر بيبرس السلطنة ٦٠
معركة حمص الأولى ٦٣
مقتل الملك الناصر ٦٦
خلاف بين هولاكو وبركه خان ٦٩
فتح البيرة وقيسارية ٧١
فتح صفد ٧٢
فتح يافا وغيرها ٧٤
فتح إنطاكية ٧٧
عودة الظاهر إلى دمشق ٧٨
معركة البيرة الثانية ٨٠
مرض ركن الدين الملك الظاهر بيبرس ٨٢
صفاتــه ٨٣
وفــاتــه ٨٤
ذكر تملك سيف الدين قلوون السلطنة ٨٥
معركة حمص الثانية ٨٧
بدء القتال ٨٨
خاتمة في ذكر نهاية المعركة ٩٠


دار القلم العربي



معارك عربية إسلامية خالدة

للصغار واليافعين

١ - معركةُ ذي قـار
٢ - معاركةُ بـدْر
٣ - معركةُ أحُـد
٤ - معركةُ الخَنْدق
٥ - معركةُ حُنَيْن
٦ - معركةُ اليمَامةِ
٧ - معركة اليرموكِ
٨ - معركةُ الجسْرِ
٩ - معركةُ القَادسيّةِ
١٠ - معركةُ فتحِ المدائنِ
١١ - معركةُ نهاوند
١٢ - معركةُ فتحِ الاندلسِ
١٣ - معركةُ بَلاطِ الشّهداءِ
١٤ - معركةُ وادي الحِجارَةِ
١٥ - معركةُ العموريّةَ
١٦ - معركةُ الزّلاّقةِ
١٧ - معركةُ حِطينَ
١٨ - معركةُ بيتِ المقْدِسِ
١٩ - معركةُ عـكّا
٢٠ - معركةُ عَيْنِ جالوتَ

لم تكن الحربُ لدى العرب المسلمين غايةً لذاتها ، وإنما كانت لردّ الع
الأخطار ، ولإزاحة أولئك الذين يقفون في وجه الدعوة ويحولون دو
وهي معارك تشمل على بطولات وتضحيات وجود بالنفس (والجودُ ب
غاية الجود).

ودار القلم العربي للأطفال بحلب - إذ تنشر هذه الكتب - إنما تسعى إ
نفوس الأبناء حبَّ التضحيةِ والفداء ، وحبَّ آبائهم الذين بذلوا دماء
شامخةً لايدنّسها مستعمرٌ غاشم.

والله من وراء القصد

الناشر

I.S.B.N: 1 - 5050 - 3

